الدكتور علي محمد حسن العماري
الأستاذ بجامعة الأزهر

وَقفة مع الزّمَن

بَحثٌ عِلميٌّ أدَبيٌّ

فيـــه
ما عساه يُمتع الروح، ويثلج الصدر
ويروح عن النفس
وما عساه يبصرنا الغاية، ويقيمنا على الجادَّة
وفيـــه
شذرات من العلم، وأفانين من التاريخ
وطُرف من الأدب
والوعاء الزمن .. والله المستعان ..

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

أميرة للطباعة

عابدين. تليفون ٣٩١٥٨١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم د / عبد العظيم إبراهيم المطعنى

هذا الكتاب « وقفة مع الزمن » آخر مؤلفات شيخنا الأستاذ الدكتور / على محمد حسن العمارى ، كتبه بالبلد الطيب الأمين (مكة المكرمة) فى السنة الأخيرة من إقامته بها أستاذا للدراسات العليا العربية ، فى جامعة الملك عبد العزيز، ثم جامعة أم القرى فيما بعد ، تلك الإقامة التى استمرت ما يقارب العشرين عاما ، حيث أنهى علاقته بالجامعة ، وعاد إلي مصر أوائل عام ١٤١٧ هـ، الموافق ١٩٩٦ م ، وقد أهدانى نسخة « خطية » من هذا الكتاب ، حيث كنت أعمل معه في جامعة أم القرى .

ولد الشيخ الجليل فى محافظة سوهاج فى اليوم الثالث من إبريل ١٩١٣ م ، وتلقى علومه فى الأزهر الشريف وكان من أوائل الخريجين فى كلية اللغة العربية بالقاهرة ثم عين مدرسا فى معاهده ، ثم مفتشا للعلوم العربية ، ثم حصل على الدكتوراه (العالمية) - (بكسر اللام) - وعين أستاذا للبلاغة والنقد فى كلية البنات بجامعة الأزهر ، كما أُعير إلى التدريس فى السودان ، ثم إلي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ثم إلى جامعة الملك عبد العزيز ، فجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، حتى عام ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

وقد تخرج على يديه عشرات الباحثين والباحثات في مرحلتى (الماجستير) و (الدكتوراه) وبخاصة فى الجامعات السعودية ، التى طالت مدة عمله بها فى أخصب سنى عمره العلمية .

وقد كان - رحمه الله - مثالا عاليا للعلماء الجامعيين بين العلم والعمل الصالح ، والزهد فى الدنيا ، معتزا بنفسه اعتزاز المؤمن المتواضع ، شديد الحرص على طلب المعالى النفسية والخلقية ، عزوفا عن المناصب الإدارية مهما كان

بريقها ، عكوفا على مطالعة أسفار العلم شيخا من شيوخ العلم والعبادة ، كثير الصمت ، قليل الكلام ، ينزل الناس منازلهم ، لا يحابى أحداً ، ولا يهضم حق أحد ، محبوبا من كل عارفيه ، يحمل خصومه – إن كان له خصوم – علي احترامه ، لبعده عن النقائص ، وتحليه بمكارم الأخلاق .

وكان كثيرا ما يردد أبياتا للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى قالها في الاعتزاز بالنفس ، وصون كرامتها ومن تلك الأبيات ما قاله فى طلب العلم ، ولام فيه العلماء الذين يذلون أنفسهم لدى الأمراء ومُلاَّك الدنيا :

أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة

إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما

ومنها :

يقولون هذا مشرب قلت قد أرى

ولكن نفس الحر تحتمل الظما

ومنها :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

ولو عظموه فى النفوس لعُظِّما

كان شيخنا العمارى – رحمه الله – بلاغيا بليغا من طراز فريد . وناقداً أريبا ، مشرق العبارة . صائب المعنى بدأ مشاركاته العلمية والنقدية والأدبية وهو طالب ، وهو من كتَّاب مجلة « الرسالة » التى كان يرأس تحريرها أديب العربية الكبير الأستاذ / أحمد حسن الزيات ومن كتَّاب مجلة الأزهر ، وله فيها أبحاث ومقالات رائعة حتى بعد عودته الأخيرة من العمل فى المملكة العربية السعودية .

* * *

وإلى جانب هذا كانت له مواقف تسجل بأحرف من ذهب منها هذا الموقف :

كان عضوا فى مناقشة رسالة دكتوراه فى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، وكان صاحب الرسالة شابا فلسطينيًا تلقى علومه فى جامعة الأزهر ، ثم ألتحق بقسم الدراسات العليا بجامعة أم القرى . كان موضوع الرسالة عن المرأة ، وقد أساء الباحث إلي المرأة المصرية إساءات بالغة شغلت جانبا كبيرًا من الرسالة ، ولما جاء دور الشيخ في المناقشة ركز على هذه الإساءات ، وأثبت أن الباحث قد تجنى على المرأة المصرية ، وأظهرها فى صور هى أبعد ما تكون عنها .

وحين خلت اللجنة إلي المداولة أصر شيخنا العمارى رحمه الله على ألا يمنح الباحث درجة (الدكتوراه) إلا بعد أن يحذف من البحث كل ما يتعلق بإساءة المرأة المصرية ، والافتراء عليها سيرة وسلوكا . ولم يستطع زميلاه في المناقشة إثناءه عن هذا الموقف ، فأعلن القرار جماعيا أن منح الباحث درجة (الدكتوراه) لن يكون إلا بعد التعديل المطلوب على أن تعرض الرسالة على شيخنا الأستاذ الدكتور على العمارى. حدث هذا في نهاية عام دراسى ، فنجمت عن هذا الموقف الشجاع أزمة حادة في أروقة الجامعة وفي خارجها ، وتوسطت كثير من الشخصيات السعودية البارزة لدى شيخنا رحمه الله ، لكى يخفف من موقفه ، ولكنه أصر غير عابيء بالعواقب كيف تكون وظل الباحث ثمانية أشهر ينقى البحث من كل افتراء على المرأة المصرية ، وبعد أن راجع شيخنا الرسالة بكل حرص مرة أخرى ، وتأكد أن الباحث نفَّذ كل المطلوب وافق على منحه الدرجة .

هذا الموقف لا يكون إلا من أصحاب المبادئ والقيم الرفيعة . وقد ضاعف موقفه هذا من احترامه فى الجامعة ، حتى الذين كانوا يرجونه التسامح مع الطالب .

* * *

وقبل عودته الأخيرة إلي مصر حدث موقف مماثل من بعض الوجوه :

فقد أسندت إليه « الكلية » الإشراف على طالبة فى مرحلة الماجستير ، فوافق لها شيخنا على موضوع بحث ، وافق عليه قسم الدراسات العليا ولما عرض

الموضوع على مجلس الكلية ، وكان أعضاؤه من تلاميذه ، رفض المجلس الموضوع الذى وافق عليه الشيخ الجليل ، واقترح المجلس تحديد موضوع آخر بديل تحت إشراف شيخنا العمارى . . ولكنه أصر علي الموضوع ، وإلا فإنه يرفض الإشراف على الطالبة وقد تم له ما أراد ، وهذه المواقف ماكان ينتظر من أستاذ معار للعمل خارج بلده أن تصدر عنه ، ولكن الرجل رجل فى كل مكان .

* * *

ولشيخنا رحمه الله كثير من المواقف « النقدية » فى مجال التخصص الذى كان يعمل فيه (البلاغة والنقد) فقد قال لى يوما ونحن جلوس فى المسجد المكى الحرام ، إن كتاب « أسرار البلاغة » للإمام عبد القاهر الجرجانى فيه نقص فى جميع الطبعات المتداولة بين أساتذة العلم وطلابه ؟

قلت : وكيف عرفت هذا ؟ قال : الشيخ عبد القاهر في مواضع من كتابه « أسرار البلاغة » له إحالات كأن يقول :

وقد بينا هذا فى غير هذا الموضع . ثم قال : وقد قرأت كتابه « الأسرار » فلم أجد فيها ذكرا لموضوعات تلك الإحالات ، وقرأت كتابه « دلائل الإعجاز » فلم أجد شيئا مما أحال إليه . وهذا يرجح أن فى كتابه « أسرار البلاغة » نقصا حدث على أيدى « النساخ » هذا خلاصة أمينة لما قاله عليه رحمة الله .

وقد عزمت مرات على القيام بتجربة مماثلة لتجربته ، ولكن الوقت لم يُسعف .

وقد كتب فى الأشهر الأخيرة من إقامته بمكة المكرمة بحثا ما يزال مخطوطا بيَّن فيه أن كتاب « المثل السائر » لضياء الدين بن الأثير ، ليس من تأليفه ، ولكنه لأحد شقيقيه مؤلف (الجامع الكبير) وقد قام الشيخ رحمه الله بمقابلة « المثل السائر » على « الجامع الكبير » وظفر بما يؤيد دعواه من الشواهد .

وكان للشيخ رحمه الله مشاركات فى المعارك الأدبية والنقدية ، نشرها فى عديد من المقالات فى الصحف والمجلات المصرية والعربية ، كما نشرها فى كتب.

منها كتاب « الصراع الأدبى » وكتاب « أدعياء التجديد مبددون لا مجددون » وغيرهما مما تراه على صفحة الغلاف الأخيرة ولم يقف عطاؤه العلمى على مجالات الدراسات الأدبية والنقدية ، بل أسهم بنصيب وافر فى مجال العلوم الإسلامية وله فيها كتب ، تبلغ عشرين كتابا ، منها :

« فقهاء بلا فقه » و « تيارات منحرفة فى الفكر الدينى المعاصر » و « فلسفة الزكاة » وغيرها .

أما هذا الكتاب « وقفة مع الزمن » فقد أودع فيه خلاصة تجاربه العلمية والتأملية ، وهو – على صغر حجمه – مائدة « ثقافية » وضع فيها الشيخ ألوانا شهية من المعارف ، والطرف ، والحكم ، والأمثال ، وبعض المسائل العلمية . وسيجد فيه القارئ متعة رفيعة المستوى ، فى الانتقال من فن إلى فن ، فى هذه اللوحة « الذوقية » العامرة بالمعارف « المصفاة » كما ذكر هو رحمه الله على صفحة الغلاف « الأولى » .

توفى شيخنا « العمارى » عصر الاثنين ٣ ربيع الثانى ١٤١٩ هـ الموافق ٢٧ / ٧ / ١٩٩٨ م بعد عمر مديد (٨٧ عاما) ملئ بأعمال البر والجهاد العلمى على مدى ٦٧ عاما من سنى عمره الكلى .

وقد عزمت أسرته البارة على طبع ما تركه مخطوطا من مؤلفاته ، وفى مقدمتهم حرمه الوفى ، ونجلاه : لواء متقاعد ضياء العمارى ، ودكتور طبيب علاد العمارى وصهره الدكتور حسين عباس الأنصارى .

وبعد وفاته عثرت أسرته على قصيدة مكونة من ثلاثة عشر بيتا عن تجاربه فى الحياة ، ثم نعى نفسه فى آخرها وودع « بنى الدنيا » .

هذه القصيدة كتب الأبيات العشرة الأولى منها بعد عودته النهائية من مكة المكرمة ، حيث كان عمره قد بلغ أربعة وثمانين عاما .

أما أواخرها فقد كتبها حين أحس بدنو أجله قبيل دخوله المستشفى ، حيث فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها وهو تحت العلاج بها .

قال رحمه الله :

ثمـــانون مـــرت مـــســـرعـــات وأربع

ودهـر تـولـى ، لـيـــــتــــــه الآن يـرجـع

فــــأنزع عنه كـل مـــيـل إلي الـهــــوى

وأغـــرس فـــيـــه كـل خـــضــــراء تونع

صـــبـــحـت دياجـــيـــه فلم تُحْنَ هامـــتى

ولا غـــيـــرتنى شـــمــــســــه حين تـسطع .

ثمـــانون مـــرت مـــســـرعـــات وأربع

ولـيس لـغـــيـــر الله في الـقـلـب مـــوضع

عـــرفت الاله الحق فى مـــيـــعـــة الصـــبـــا .

فكـان لـنفـــسى منه مـــرأىً ومـــســـمـع

فـــإن كـنـت فى ســـمـت الطريق فـــرحـــمـــة

وإن جـــارت الأهـواء فـــالـعـــفـــو أوسع

وبين الـرجـــاء والخـــوف ســـارت مطيـــتى

تُـخـب إذا جـــــد الـركـــــاب وتـوضـع

تـخـــاف ، وخـــوف الله شـــيـــمـــة مـــؤمن

وتـرجـــو ، وفي عـــفـــو المهـــيـــمن تـطمع

ثمـــانون مـــرت ؟ يا إلـهى فـــهـب لهـــا

قـــبـــولا به نـحـــو الســـمـــوات تُـرفع

وبالـرحــــمـــة المرجـــاة ربِّ تَغَـــمَّـــدَنْ

عَـليِّـــاً ، فـــيـنجـــو ثم فـى الخلد يرتع

وداعــــا بـنى الـدنـيـــا وداع مـــفـــارق

إلـــي الأبـــد الأســـنـــى الـــذى لا يُـــوَدَّعُ

يعيش الفتى ما عاش والأمر صائر
إلى لحظة يخبو بها الضوء أجمعُ
هنالك تنجاب السجابات كلها
ولا نور إلا نور ربك يَلْمَعُ

هذا ما قاله شيخنا العمارى ، مكتوبا بخط يده . كتبه وهو يتأهب للقاء ربه الكريم الذى يحب من أحب لقاءه .

ونحن نقول لشيخنا ، وهو بين يدى ربه :

عليك سلام الله يا شيخنا الذى
تركت لنا زاداً من العلم ينفع
وطوباك فى دار النعيم مخلداً
تروح وتغدو فى الجنان وتمرع

رحمنا الله وإياك رحمة واسعة يا أبر الشيوخ .

القاهرة - الظاهر فجر الخميس ١٠ / ٣ / ١٤٢٠ هـ
الموافق ٢٤ / ٦ / ١٩٩٩ م .



المقدمـــة

بعد الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، والصلاة على نبيه محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

وبعد الشكر لله عز وجل على كل ما أنعم به، وإن كان أعظم الشكر لا يوفى بأصغر النعم.

وبعد اتّهام للنفس بالتقصير، وتحذيرها من التّمادى فيه.

بعد ذلك كله ....

يطيب لى أن أبدأ بكلمة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، أُنبِّه نفسى إليها دائما، وأنصح غيرى أن يستضئ بها فى كل أعماله، وأن يحقق معناها فى قوله وفعله.

قال:

(وأنا أعيذ نفسى بالله أن أقول إلاّ له، وأعيذك بالله أن تسمع إلا له)[1].

وبكلمة أخرى له أيضا:

(وأنا أزعم أنّ الناس يحتاجون إلى طبيعة، ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف، وأول ما ينبغى أن يبتدئ به صاحب الإنصاف أمره ألاّ يعطى نفسه فوق حقها، وألا يضعها دون مكانها، وأن يتحفظ من شيئين فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما: أحدهما تهمة الإلف، والآخر تهمة السابق إلى القلب. والله الموفق)[2].

فالقائل والمتلقى إن لم تكن نيتهما خالصةً لله تعالى فى كل ما يقال، وما

---

(١) كتاب الحيوان ج ٤ ص ٢١١.

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٠٧.

يُتلقّى، ضلاًّ الطريق، وزُيّن فى عيونهما الباطل، وبُغّض إليهما الحق، فضَلاً وأضلاً.

والإنسان المنصف، المؤثر للحق، السائر على القصْد لا يرفع نفسه فوق قدرها، فإنه حينئذ يستثقل ويُذمّ، ويُرمى بالغرور والكبر، وكفى بهما مذمَّتَين.

ولا يهضم نفسه فيضعها دون مكانها اللائق بها، وينزل بها عن مكانتها التى تستحقها، وقد عبر عبد القادر المازنى عن هذا الموقف أبلغ تعبير فى قوله: (واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لن يرفعك الناس إليها، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضا، ويُزحزحونك إلى ما وراءها).

وذكر أن الحياء شئ حسن له فضله ومزيّته، ولكن الحياء قد يحرم المرء أن يجنى ثمرة تعبه، وليس له معنى فى الحياة (إلا أن الناس يملأون بطونهم وهو جائع، ويدخلون وهو واقف بالباب)[1].

أما تهمة الإلف فأخطر ما يعترض الحكم الصحيح على الناس، وعلى الأشياء، وعلى العقائد والأفكار؛ ذلك أن الأمور المألوفة قد تكون مئوفة، فالعادات والتقاليد والمذاهب التى يألفها الناس تضطرهم فى أكثر الأحايين إلى الخضوع لسُلطانها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الصواب والخطأ فيها، وهم يتعصبون لها، ويجادلون عنها حتى لو وضح لهم بعدها عن الصواب، وارتكاسها فى الخطأ.

وكذلك تهمة السابق إلى القلب، فكثيرا ما يكون هذا السبق ملاءمة لهوى النفس، وموافقة لميل القلب، فالحكم الذى يبنى عليه يكون – فى الغالب – جائرا، فإذا أراد المنصف حكما صحيحا فعليه أن يتروّى. وقديما قيل: النظرة الأولى حمقاء و: روِّ تحزم فإذا استوضحت فاعزم.

هذا ما فهمته من كلام الجاحظ، ولعل وراء عبارته أسرارًا أخرى، ومن اجتهد فقد أبرأ.

---

(١) حصاد الهشيم.

وتحضرنى فى هذا المقام كلمة لعبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - : (ما ندمت على شئ ندمى على يوم غربت شمسه، ونقص فيه أجلى، ولم يزد فيه عملى).

وثانية للحجاج بن يوسف : (إن امرءاً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربَّه، يستغفر من ذنبه، أو يفكر فى معاده لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة) [1].

وثالثة لعَامر بن عبد القيس : (رأيت نفَرا من أصحاب رسول الله - ﷺ - فحدثونا أن أصغى الناس إيمانا يوم القيامة أشدهم محاسبة لنفسه فى الدنيا، وأن أشد الناس فرحا فى الدنيا أشدهم حزنا يوم القيامة، وأن أكثر الناس ضحكا فى الدنيا أكثرهم بكاء يوم القيامة.

ورابعة لياقوت الحموى : (ينبغى أن تحاسب نفسك كل ليلة إذا أويت إلى منامك، وتنظر ما اكتسبت فى يومك من حسنة فتشكر الله عليها، وما اكتسبت من سيئة فستغفر الله منها، وتقلع عنها، وترتب فى نفسك ما تعمله فى غدك من الحسنات، وتسأل الله العناية فى ذلك).

وأخيرا قال ديومانس : (ينبغى للإنسان أن ينظر فى المرآة فإن كان وجهه حسنا استقبح أن يضيف إليه فعلا قبيحا، وإن كان وجهه قبيحا امتعض أن يضيف قبيحا إلى قبيح حتى لا يتضاعف القبح) [2].

ولست أشك فى أنه لا يوجد مؤمن صادق الإيمان تلهيه شئون دنياه عن محاسبة نفسه، وعن مراقبة ربه فى سره وعلانيته فى كل أقواله وأفعاله، ولكن ليس من المعتاد أن يسجل كل من يحاسب نفسه هذه المحاسبة فى كتاب، أو ينشرها على الناس خوف الكذب، أو أن يكشف ما ستره الله عليه فيأثم [3].

---

(١) السيد المرصفى - رغبة الآمل ج ٢ ص ١٧٣.

(٢) أبو حيان التوحيدى - الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٤٧.

(٣) إشارة إلى الحديث الشريف الذى رواه البخارى : (كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه). فتح البارى ج ١٠ ص ٥٠١.

ووقفتى هذه ليست أول وقفة وقفتها مع الزمن بل سبقتها وقفات سجلت بعضها، كانت على رأس الخمسين فى قصيدة إن لم تكن من الشعر الرائع فهى تحكى بعضا من كل، وحسبها أنها جزء من التاريخ، وهذه بعض أبياتها :

خمسون من عمرى الحبيب صدعتُها ... ووقفت فوق حطامها أتأمل
أرنو إلى الماضى بقلب حالِم ... وأظلُّ فى أفيائه أتنقل
ظِلٌّ وأمواهٌ وزهرٌ يانع ... وبلابلٌ فوق الغصون تُرتِّل
ولقد نسيتُ الشوكَ فى أغصانه ... ونسيتُ أغربةً عليها تحجل
هو هكذا الماضى خيالٌ رائق ... طاب الجنى أو كان منه الحنظل

* * *

ودخلت معركة الحياة وليس لى ... إلا المنى وأخو الأمانى أعزل
فلقيتُ من جدٍّ الحياة وهزلها ... ما يستبيح دم البرئ فيقتل
ويَجدٌّ فى الحانات مُحتفيًا بها ... وعلى المحاريب الكريمة يهزل

* * *

أنا لا أذم الدهر إن أغضى فقد ... أعطى ويدبرُ بالنعيم ويقبل
ولقد حبانى الله أعظمَ نعمةٍ ... أعطى (الرضا^ضى) وهو النّعيم الأول

* * *

وهى قصيدة لا ترقى إلى شعر المبدعين، ولا تنحط إلى ذلك الهذر الذى يسمونه الشعر الحر.

* * *

أما هذه الوقفة مع الزمن فقد دفعتْ إليها مناسبةٌ خاصة، ذلك أنى قرأت كلمة منسوبة للإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة – رضى الله عنه – تقول : (ليس من المروءة أن يخبر الرجل بسنّه) ، وقد كنتُ من أول وهلة أعتقد أن فى الكلمة تغييرا، وأن صحتها : ليس من المروءة أن يُسأل الرجل عن سنه، فهذا

الذى يعرفه الناس، أن فى هذا السؤال – ما لم تكن هناك ضرورة داعية إليه – نوعًا من الإحراج، وكذلك هو خارج عن اللياقة والذوق، بل يكون أحيانا سوء أدب، وجفاف خلق، وكزازة طبع.

ويكون الإحراج أشد، والخروج عن مقتضى الذوق أبعد حين يوجه السؤال إلى امرأة، فمن عادة النساء – وقد يكون ذلك عند كثير من الرجال – إخفاء المدة التى قضتها الواحدة منهن فى مسار الحياة، وربما دعا هذا السؤال أكثرهن إلى الكذب، وقد قيل: المرأة حين تُسأل عن عمرها تقسم سنوات عمرها على اثنين، وتضيف خمس سنوات إلى سنّ صديقتها.

ثم وقفت وأنا أطالع (مناقب الشافعى) للبيهقى على هذه الكلمة كما قرأتها أولا منسوبة للشافعى.

قال البيهقى: (قال لنا أبو عبد الله الحافظ فيما قرئ عليه فى قول الشافعى – رضى الله عنه – فى هذا صيانة كثيرة للمروءة، وهى أن المخبر بسنِّه لا بد أن يكون بين مصدِّق ومكذب، فقائل يقول: نقص من سنّه رغبةً فى الشباب، وآخر يقول: زاد على سنه طلبا للتشايخُ، ثم إن كان من أهل العلم قيل: متى لقى فلانا ولقى فلانا، وهو صغير؟!).

ولست أستبعد أن تكون الكلمة للإمام مالك ثم ذكرها الشافعى دون أن ينسبها فنُسبت إليه. ومما جاء فى هذا الموضع من المناقب: قال أبو عبد الله: سألنى أبو بكر جعفر المزكى، وكان من عقلاء الرجال عن سِنِّى فأجبتُه بقول الشافعى، فقال: لقد أجبت بجواب شاف [1].

وقبل أن آخذ فى الحديث عن هذه الوقفة أورد طرفة تستريح إليها النفوس، وتهش لها القلوب:

قال ابن حِجَّة الحموى فى كتابه: (ثمرات الأوراق): (ومن لطائف

(١) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى. (مناقب الشافعى) ج ٢ ص ٢١٥ تحقيق الأستاذ سيد صقر – رحمه الله.

المنقول أن رجلا قال لهشام القرطبى: كم تَعُدُّ؟ قال: من واحد إلى ألف وأكثر.

قال: لم أُردْ هذا. كم تعُدّ من السنِّ؟ قال: اثنين وثلاثين. ست عشرة من أعلى، وستّ عشرة من أسفل. قال: لم أُردْ هذا. كم لك من السِّنين؟ قال: والله مالى منها شئ، والسِّنون كلُّها لله. قال: يا هذا. ما سنُّك؟ قال: عظم. قال: أبنْ لى ابنُ كم أنتَ؟ قال: اثنين: رجل وامرأة. قال: كم أتى عليك؟ قال: لو أتى على شئُ لقتلنى. قال: كيف أقول؟ قال: تقول: كم مضى من عمرك؟ [1].

ولا أشك أن هشاما هذا استثقل الرجل السائل فتلاعب به، وسخر منه، لينّبهه إلى سخف سؤاله، وأنه ليس من المروءة أن يَسأل، وليس من المروءة أن يُجاب.

وربما كان دليل ذلك – مع أن ما أراه لا يحتاج إلى دليل – أن القصة ليس فيها أن هشامًا بعْد أن أرشده إلى الأسلوب الأمثل فى السؤال – أجابه، وذكر له عدد ما مضى من عمره.

واستطراداً مع هذه الطُّرفة نذكر عبارات للعرب فى هذا المعني:

قيل لبعض الأعراب: كم سنة أتت عليك؟ فقال: ولّتنى الأربعون ذنبهَا.

وقيل لآخر مثل ذلك، فقال: أنا فى قرْح الثلاثين، أى فى أولها، وفى أول شهر منها، والأقراح أوائل الأشياء.

ويقال: سَنَد فى الخمسين، وارتقى إليْها. وفى القاموس: سند للخمسين قارب لها.

وقال ابن الأعرابى: قلتُ لأبى الجماهر: ابن كم أنت؟ قال: قد ولَّتنى الخمسون ذنبَها.

---

(١) على هامش محاضرات الأدباء ج ١ ص ٣١٩.

وقلت لآخر مثله، فقال: حَبَوْتُ إلى السِّتين.

وقال بعضهم: أخذت بعنق الستِّين، وقال آخر: راهمتُ الستِّين، مأخوذ من الرهام وهو العدد الكثير [1].

وفي القاموس المحيط: غازل فلان الأربعين: دنا منها.

ثم. قد تعني الوقفة مع الزمن التعرض لأخطر القضايا التي هي جوهر العقيدة.

وقد تعني النظر في أحوال الجماعات الإنسانية، وموافقتها لأحوال الأزمنة التي عاشت فيها، فإن الجماعة صورة للزمن، كما قال عروة بن الزُّبير – رحمه الله: الناس بأزمنتهم أشبه منهم بآبائهم وأمهاتهم [2].

وقد يبدو لبعض أصحاب النظر أن يقف على رأس مرحلة معينة من عمره، ويسْبَحُ بأفكاره في الماضي، فيتذكر حاله مع الأيام، وكيف تقلبت به مراحل حياته، وربما امتد ذلك إلى أيام الطفولة، يذكر أيام الرخاء، وأيام الشدة، ويقف عند الأعلام البارزة في ماضيه، ولو أن أكثر الناس لا ينظرون إلى الماضي إلا على أنه أيام السعادة التي يحرمون منها في حاضرهم.

وربما كانت الوقفة مع الزمن تعني التعرّف على تصاريفه، ورصْد ما جاء من ذلك في مختلف النصوص، واستحضار ما قاله بعض الحكماء، وبعض الشعراء فيه.

وهذا هو المقصود من وقفتنا هذه، فجلُّ عنايتها رصد طرائف علمية، وروائع أدبية، قد يكون من استحضارها أعظم العبر، ويكون لها في نفوس من يطلعون عليها كثير أو قليل من الأثر، وهي محاسبة للنفس ولكنها غير مباشرة. قال الشاعر:

---

(١) المرزوقي. (الأزمنة والأمكنة) ج ١ ص ٢٩٨.

(١) عن الحلية لأبي نعيم، وفي عيون الأخبار ج ٢ ص ١ أنها من كلمات عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –.

وللعْهدِ مَلهىً فى التَّلاد ولم تقُد   هوى النفس شئ كاقتياد الطرائف [1]

وأول سؤال يقع فى ذهن الواقف مع الزمن: ما حقيقة الزمن؟ وقد يبدو هذا السؤال غريبا عجيبا، إذْ من المُعضلات توضيح الواضحات.

ولكن عند التأمل الطويل الواعى تبدو الإجابة على هذا السؤال فى غاية الصعوبة فأولا . هل يوجد كائن اسمه الزمن؟ وثانيا: إذا ثبت وجوده ما حقيقته؟ وثالثا: كيف تقنع من يريد أن يقتنع بثبوت هذه الحقيقة؟.

لقد أنكر طائفة من الفلاسفة وجود شئ اسمه الزمن، واستدلوا على ذلك باثنتى عشرة حُجّة ذكرها فخر الدين الرازى فى كتابه: (المطالب العالية من العلم الإلهى).

ولعل مما يُشيع الحيرة فى نفوس الباحثين أن هذا العالم المتكلم الجدل القادر على تصريف الكلام، ومقارعة الحُجَة بالحجة - هذا الفخر لم ينقض حجة واحدة من هذه الحجج، وإن جاءت إشارة عابرة فى مواضع أخرى من الكتاب قد تصلح أن تكون أساسا لنقض حجة واحدة منها.

ويطول الكلام لو أوردت هذه الحجج، بل لو لخَّصتها فليكن الاكتفاء بواحدة منها.

قالوا: إنا نعلم بالضرورة أن الأجزاء المفترضة فى الزمن لا تحصل معًا، بل حصولها لا يعقل إلا على سبيل التعاقب والتقضِّى، فنقول: إما أن يكون الشئ من تلك الأجزاء حضور وحصول أولا يكون، فإن كان الأول كان واحد من تلك الأجزاء حال حضوره غير منقسم، وإلا لحصل له نصفان، ويكون النصف الأول سابقا على النصف الثانى، وحينئذ لا يكون الحاضر حاضرا. هذا خُلْف.

وإذا ثبت أن كل واحد من تلك الأشياء غير قابل للقسمة - ولا شك أن الزمان إنما يمتدّ بسبب تعاقب تلك الأشياء الحاضرة - لزم كون الزمان مركبا من

---

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام ج ٣ ص ٢٦٠ .

الآنات المتتالية التى يكون كل واحد منها غير قابل للقسمة، ولو كان الأمر كذلك لزم كون الجسم مركبا من الأجزاء التى لا تتجزأ، لأن القدر الذي يتحرك عليه المتحرك من المسافة فى الآن الواحد الذى لا يقبل القسمة - إن كان منقسما - كانت الحركة إلى نصفه واقعة فى نصف ذلك الآن، والحركة الواقعة فى النصف الثانى من ذلك الآن، فحينئذ ينتصف ذلك الآن، وكنا قد فرضنا أنه لا ينتصف. هذا خُلف.

فثبت أن القول بكون الزمان مركبا من أشياء حاضرة كل واحد منها لا ينقسم يُفضى إلى إثبات الجوهر الفرد، وهو باطل، فكان القول بوجود الزمان باطلا.

وأما القسم الثانى، وهو أن يقال: إنه ليس لشئ من الأجزاء المفترضة فى الزمان حضور، ولا حضور ألبتة، فهذا تصريح ينفى الزمان بالكلية، لأن الماضى هو الذى كان حاضرا ثم انقضى، والمستقبل هو الذى يتوقع حضوره، وهو بعد لم يحضر، فكونه ماضيا ومستقبلا يتوقف على كونه حاضرا، فإذا كان كونه حاضرا ممتنعا كان وجوده فى الماضى والمستقبل محالا، وإذا كان لا يتقرر له وجود لا فى الحال ولا فى الماضى ولا فى المستقبل امتنع القول بوجوده [١].

وبعد أن أورد الرازى مجموع الدلائل الاثنى عشر التى استنبطها من أقوال القائلين بأنه لا معنى لوجود الزمن - كما يقول - شرع فى تقرير قول من يقول: العلم بكون المدة والزمان موجودين علم بديهى أوَّلى لا يُحتاج فيه إلى الحجة والدليل.

قال: (اعلم أن المثبتين للمدة فريقان: منهم من يدَّعى أن العلم بوجوده علم بديهى ضرورى، غَنيٌّ عن البيان والبرهان، ومنهم من حاول إثباته بالبيِّنة والبرهان. أما الفريق الأول فمنهم محمد بن زكريا الرازى وآخرون).

ثم يقول إنه لم يجد للفريق الأول إلا ادعاء البديهة والضرورة فهم - كما هو واضح من قوله - لم يقيموا حجة واحدة على هذه البديهة، أما هو فسيقرر

---

(١) المطالب العالية ج ٥ ص ١٠، ١١.

تقريراً أحسن وأكمل مما ذكروه، ثم أورد عشر حجج على صحة قولهم، وبعد أن يذكرها يقول: (مع أن فى الواحدة منها كفاية فى إثبات المطلوب).

وبقوله هذا يسّر لنا أن نكتفى بإيراد واحدة من تلك الحجج:

(إنا إذا قلنا إن آدم عليه السلام كان قبل محمد عليه السلام فإنا لا نعقل من هذه القبلية إلا أن بينهما مدة مخصوصة، وزمانا مخصوصا، وإذا قلنا: الأخوان التوأمان وُجدا معًا لم نعقل من هذه المعية إلا أنهما حصلا فى زمان واحد، ولو رجعت إلى جميع العقلاء الذين بقوا على فطرتهم الأصلية، وسلامة عقولهم الغريزية لم يفهموا من هذه القبلية، ولا من هذه المعية إلا ما ذكرناه، فعلمنا أن العلم بوجود المدة والزمان علم مقرَّر فى بدائه العقول، وغرائز الأذهان.

فإن قيل: لمَ لا يجوز أن يكون المراد من هذه المعية والقبلية نفس ذاتيهما؟ قلنا: لأنا جعلنا ذاتيهما ووجوديهما موردا للتقسيم لهذه المعية ولهذه القبلية، ومورد التقسيم غير ما ورد به التقسيم، وذلك معلوم بالضرورة [١]).

ثم ذكر الرازى أن من الفريق الثانى الذين يستدلون بالبينة والبرهان الشيخ ابن سينا، وقد توسع الرازى فى إيراد براهينهم، وملخص أحدها أن ههنا شيئا ينقسم إلى السنين والشهور والأيام والساعات، وقد قضت بدائه العقول بهذه التقسيمات، وهذا الذى حكم عليه العقل بكونه موردا لهذه التقسيمات إما أن يكون عدما محْضًا، وإما أن يكون موجودا متحقِّقا، والأول باطل؛ لأن العدم المحض لا يمكن تقسيمه إلى الأجزاء، وكذلك يحكم العقل بأن هذا الشئ منه ما مضى، ومنه ما هو مستقبل، ولا يحكم العقل بذلك إلا إذا كان لهذا الشئ حضور وحصول.

* * *

(١) المطالب العالية ج ٥ ص ٢٣.

حقيقة الزمان

أما عن حقيقة الزمن فقد قال الرازى فخر الدين : إن الحكماء مختلفون فيه، فذهب أرسطو وأتباعه كأبى نصر الفارابى وأبى على بن سينا إلى أنه مقدار حركة الفلك الأعظم، وقال قوم آخرون إنه عبارة عن نفس حركة الفلك، وقال الشيخ أبو البركات البغدادى : إنه مقدار امتداد الوجود، وقال آخرون : إنه لا معنى للزمان إلا مجرد التوقيت، وهذا الذى ارتضاه الرازى، وقد أبطل قول أرسطو وأتباعه بخمس عشرة حجة.

وممن قالوا بأن الزمن حركة الفلك أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السُّهيلى قال : (إن الزمان لما كان أحداثا تحدث عن حركة الفلك، لما كانت هذه الحوادث التى هى أجزاء الزمان معلومة عند جميع المخاطبين جعلوها تاريخا [1]).

وقال : (القول فى أمْسِ وغد واليوم إن الأيام لما كانت متماثلة من حيث كان كل واحد منها عبارة عن جملة من حركات الفلك، والحركات متماثلة بأنفسها لا يتميز يوم عن يوم بصفة نفسية ... لم يبق إلا تمييز بالأعداد) . (كما أن الزمان حركة الفلك) [2].

والحق أن الفلاسفة والمتكلمين عقّدوا القضايا بقدرتهم على الجدل . ولمّا زاد تعمُّقهم، وبالغوا فى الافتراضات والتخمينات، واستعانوا بالمنطق، وأدخلوا العقول فى متاهات رغب بعض العلماء عن علم الكلام، بل قبل ذلك . وممن نهوا عنه - وإن أخذوا بنصيب منه - أئمة المذاهب الفقهية الأربعة - رحمهم الله تعالى، وأجزل لهم الثواب .

وقد أشاد الجاحظ بعلماء الكلام، وبمتكلمى المعتزلة بخاصة، ولكن أبا حيان التوحيدى بالغ فى ذمهم، فهم - فيما يرى - التزموا طريقة لا تفضى بهم

---

(١) نتائج الفكر ص ٤١٤ تحقيق الدكتور محمد ابراهيم البنا .

(٢) المصدر السابق ص ١١٣ .

إلا إلى الشك والارتياب، كما يرى أن طريقة أصحاب الحديث أسلم، ويقول إن الجدل لم يأت بخير قط، ويذكر أنه قيل: (من طلب الدين بالكلام ألحد، ومن تتبع غرائب الحديث كُذِّب، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر [1]).

ولعله يشير إلى أولئك الذين أضلهم الاشتغال العميق بعلم الكلام، كابن الراوندى فقد حكى البلخي في كتاب (محاسن خراسان) أن ابن الراوندى كان من المتكلمين، ولم يكن في زمانه أحذق منه بالكلام، ولا أعرف بدقيقه وجليله، وكان في أول أمره حسن السيرة ، حميد المذهب، كثير الحياء، ثم انسلخ من ذلك كله لأسباب عرضت له، وكان علمه أكثر من عقله [2].

وكهشام ابن الحكم – وكان رأسًا من رءوس الرافضة قيل له : أترى الله عز وجل في فضله وكرمه وعدله كلفنا مالا نطيق ، فقال : قد – والله – فعل ، ولكننا لا نستطيع أن نتكلم [3] .

وبعد أن فضل أبو حيان العوام على المتكلمين قال: (ولم أر متكلما في مدة عمره بكى من خشية الله [*]).

ثم جاء بالآبدة، فقال: (جذَّ الله عروقهم، وأراح العباد والبلاد منهم، فقد عظمت البلوى بهم، وعظمت آفتهم على صغار الناس وكبارهم، ودبَّ داؤهم، وعسر دواؤهم، وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعضعا، وساكنه متبجعا [4]).

وواضح أن أبا حيان كان ضائق الصدر ببعض متكلمي زمانه، وإلا فهو لا يجهل أن من المتكلمين علماء فضلاء، متورعين أتقياء، ولا ينقص من قدرهم أن بعض المتكلمين انحرفوا عن الجادَة.

---

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٢ . (٢) المصدر السابق ص ١١٣ .

(٣) عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٢ .

(*) نسب ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢ – ١٤١ ، هذه الكلمات إلى أبي يوسف، وفيه (تزندق) مكان (ألحد) وضبط كُذِّب : كَذَب . و(أفلس) مكان (افتقر) .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٤٢ .

على أن من أفذاذ المتكلمين من ندم على خوضه فى علم الكلام، وتبحره فيه.

من هؤلاء فخر الدين الرازى الذى كان من أكثر علماء الكلام فيه، ويكفى كتابه: (المطالب العالية) دليلا على إمعانه، وعمق غوصه فى هذا العلم.

هذا الفخر يكتب فى وصيته التى كتبها فى أخريات حياته: (ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات).

وكان كثيرا ما يطلب إيمانا كإيمان العجائز، فكان يقول: (من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز)، ولعله تأثر فى هذا بطول تأمله، وبكلام كثير من أسلافه، ومن هؤلاء شيخه الجوينى الذى يقول: (لقد قرأت خمسين ألفا فى خمسين ألفا ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها، وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت فى الذى نهى عنه أهل الإسلام منها، كل ذلك فى طلب الحق، وكنت أهرب من التقليد، والآن. وقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركنى الحق بلطف بره فأموت على دين العجائز، وتختم عاقبة أمرى عند الرحيل على نزهة الحق، وكلمة الإخلاص: لا إله إلا الله فالويل لابن الجوينى. أشهد أنى رجعت عن كل مقالة يُخالف فيها السلف، وأنى أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور).

* * *

الدهـــر

وكما اختُلف فى حقيقة الزمن اختلفوا فى المسمى بالدهر: فقال بعضهم: الدهر: الأبد لا ينقطع.

وقال الأزهرى: الدهر يقع عند العرب على بعض الدهر الأطول، ويقع على مدة الدنيا كلها، وقال آخرون: بل دهر كل قوم زمانهم.

وقال الزمخشرى: الدهر هو الزمان الطويل، وكانوا يعتقدون أنه الطارق بالنوائب، ولذلك اشتقوا من اسمه: دَهَر فلانا خطبُ إذا دهاه، وما زالوا يشكونه ويذمونه فنهاهم رسول الله – ﷺ – عن ذم الدهر، وبين لهم أن الطوارق التى تنزل بهم منزِّلُها الله – عزَّ سلطانه – دون غيره.

وقال الراغب الأصفهانى: الدهر فى الأصل اسم لمدة العالم من مبدإ وجوده إلى انقضائه، ثم يُعبَّر به عن كل مدة كثيرة، وهو خلاف الزمان، فإنه يقع على المدة القليلة والكثيرة. ودهْر فلان: مدة حياته.

وفى (القاموس المحيط): والدهارير أول الدهر فى الزمان بلا واحد، والدَّهرى، ويُضَمّ القائل ببقاء الدهر، وهو بالضم نسبة على غير قياس. ولا آتيه دهر الدهارير أبدا.

وفى (الصحاح): الدهر: الزمان. ويقال: الدهر: الأبد. وقولهم: دهر داهر كقولهم: أبَدٌ أبيد. وقولهم: دهر دهارير أى شديد كقولهم: ليلة ليلاء، ونهار أنهر، ويوم أيوم وساعة سوعاء، ويقال: لا آتيك دهر الدهارير أى: أبدا.

ويقال: دهر بهم أمر أى نزل بهم، وما ذاك بدهرى أى عادتى، والدُّهرىُّ بالضم المُحسِن، وبالفتح: الملحد. اهـ. صحاح.

* * *

حكم سب الدهر

فى الحديث الذى رواه مسلم: (لا تسبوا الدهو فإن الدهر هو الله، وروى: فإن الله هو الدهر).

عدَّ بعضهم سبَّه كبيرة؛ لأنه يؤدى إلى سبّ الله تعالى وهو كفر، وكلام الشافعية صريح بأن ذلك مكروه لا حرام فضلا عن كونه كبيرة.

والذى يتجه فى ذلك تفصيل، وهو أنّ مَن سبَّه إن أراد الزمن فلا كلام فى الكراهية، أو الله - عز وجل - فلا كلام فى الكفر، وإن أطلق فهذا محلّ التردد والاحتمال الكفر وغيره.

وظاهر كلامهم - هنا أيضا - الكراهية؛ لأن المتبادر منه الزمن، وإطلاقه على الله - تعالى - كما قال بعض الأجلة - إنما هو بطريق المجاز [1].

* * *

(١) روح المعانى ج ٢٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾.

الأوقـــات

يقال لأول ساعة من النهار الصباح ثم البكور قبل طلوع الشمس ثم الغداة بعد طلوعها ، ثم الضحى و رأد الضحى ، أي ارتفاع الشمس ، ثم الزوال ، ثم الجنوح – الهاجرة والهجيرة وذلك إذا استوت الشمس فى كبد السماء ، ثم الظهيرة إذا زالت ساعة ، ثم الرواح بعد ذلك إذا برد النهار وراح ، ثم الأصيل ، ثم المساء بعد ذلك ، ثم العصر والعَصَر ، ثم الطفول والطَّفَل ، ثم العشية ، وهى آخر ساعة من النهار .

ويقال لأول ساعة من الليل الشفق ، وهو وقت صلاة المغرب ، ثم العشاء بعدما يغيب الشفق ، ثم العتمة بعد ذلك ثم التنوير بعد الصلاة [1] .

ومن ذلك (يد الدهر) ، أى الأبد ، قال أبو العلاء :

فيا ليتنا عِشْنا حياةَ بلا رَدًى   يدَ الدهر أوبُتنا مماتا بلا نشر

وقال ابن المعتز :

كيف يبقى على الحوادث حيٌّ   بيد الدهـــر عُــودُه منحـوت

و (يد الحدَثان) قال سعيد بن حميد :

كلما أحـرزت يداى نفيسا   أسرعت نحوه يد الحدثان [2]

و (وجه النهار) . يقال : بدا وجه النهار ، وطرَّ شاربه إذا ابتدأت الظلمة فيه ، و (وجه الدهر) .

قال ابن المعتز :

قد لعمـرى أطال عنًّا صدودًا   وجـه دهـر قـاسٍ قليل الحياء

وضع الجهل ثم قال : اجهدوا جهدَكم   يا معشـر العـقـلاء

---

(١) عبد الرحمن الهمدانى . الألفاظ الكتابية : ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٢) ثمار القلوب : ص ٣٣٧

(وجه الزمان) :

فســـلام عـــلى زمـــانك   والمنـهـل فيه وربْعـِك المأنوسِ

حيث فعل الأيام ليْسِ بمذموم   ووجـه الزمـان غير عبوس(١)

(كلاكل الدهر) : يستعار كلكل البعير للدهر إذا أخنى على إنسان ، فيقال : قد ألقى عليه الدهر كلاكله . ابن الرومى :

أما ترى الدهر قد ألقى كلاكله   على فتًى عنـدكم ملقٍ كلاكله

وكما قال ذو الاصبع العدوانى ؛ خرثان بن محرث . . . بن مضر :

إذا ما الدهـــر مرَّ على أناس   كـلاكـــله أناخ بآخــــرينا

فقل للشــامتين بنا أفيـقـوا   سيلقى الشامتون كما لقينا

وهذه الألفاظ : (يد الدهر – وجه الدهر – وجه النهار – وجه الزمان) كلها مستعارة .

ومن ألفاظ الزمن (السُّنْية) وهى المدة من الدهر ، و(الحَرْس) وهو الطويل من الدهر.

قال الراجز : (فى سُنْية عشنا بذاك حرْسا) .

ومن المجاز (أشطر الدهر) قال عبد المسيح بن بُقَيْلَة ، وهو من المعمرين ، عاش ٣٥٠ سنة :

حلبت الدهر أشـطـره حياتى   ونلت من المنى فـوق المـزيد

وكِدت أنال فى الشرف الثريا   ولكن لا سـبيل إلى الخـلود

وقال ابن الرومى :

حلبت الدهـــر أشـــطره مليًّا   وذقتُ العيش من أرْيٍ وصاب

فما ألفيـت فى الإخـوان ندبْا   يجـل عن المـلامة والعـتاب

ولكنـــا نعاشـــر من لقـــينا   على حكـم المـودة والتغـابى

---

(١) ثمار : ص ٣٢٤ . للثعالبى .

(الغبُّ) فى الزيارة : الإبطاء والتقليل على غير وقت معلوم ، والأصل فيه الغب للإبل وهى أن ترد الماء يوما ، وتدع يوما ، ومثله غب الحمَّى . قال الأصمعى ومن هذا قوله – ﷺ – : (زر غبا تزدد حبا) يريد الإبطاء فى الزيارة .

وكذا (الإلمام) معناه : الأحيان على غير مواظبة ، ولا وقت محدود . وهو للزيارة لا للوقت .

(الحَرْس) الطويل من الدهر ، قال الراجز : فى سنية عشنا بذاك حرسا [1] .

[أمالى الشريف المرتضى جـ ١ : ص ١٧٣]

* * *

كيف تؤرخ العرب ؟

العرب يؤرخون بالليالى لا بالأيام ؛ لأن الليل هو الأصل . وقد ذكر الفراء أن الأصل الظلمة والنهار طارٍ عليها . قال : وهو الذى يشهد له أصول علم الهيئة .

والقرآن الكريم أكبر وأقوى شاهد على صحة مذهب العرب هذا ، فهو دائما يقدم الليل على النهار ، ولا يقدم النهار إلا إذا عكس الكلام . مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ** ﴾ [آل عمران : ٢٧] .

ومن الشواهد على الأصل قوله تعالي : ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ** ﴾ [يس : ٣٧] . يدل على أن الليل هو الأصل ، فهو في مكان الجَثة من الحيوان ، والنهار فى مكان الجلد من الشاة ونحوها ، وكشف النهار من الليل هو الواضح من الآية لمكان المفاجأة فى قوله سبحانه : ﴿ **فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ** ﴾ ، ولا تكون هذه الظلمة إلا إذا كشف الليل ففاجأ الظلام .

و (من) فى الآية مكان (عن) كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾[الزمر: ٢٢] . والسر – والله أعلم بأسرار كلامه – أن مجئ (من) يشير إلى شدة التصاق النهار بالليل فكأن السَّلْخ – هنا – انتزاع بقوة ،

---

(١) الأزمنة والأمكنة للمرزوقى بتصرف ١ – ٢٩٦

ولو جاءت (عن) لأوحى ذلك أن اتصال النهار بالليل اتصال سطحى ، ففرْقٌ بين أن تقــول : نزعت عنه الغطاء ، ونزعت منه الغطاء ، يدرك هذا الفــرق الطبع السليم .

* * *

ثم إن العرب يقولون فيما دون العشر من الليالى : (خَلَوْن) ، وفيما فوقها : (خلَت) :

روى عن الكسائى أنه قال : (إنى لأتعجب من فعل العرب هذا) [1]

* * *

ويقـول القـرطبى : (إن العـرب يقـولون لما بين الثلاثة إلي العـشـرة : (هنَّ) و(هؤلاء) ، فإذا جاوزوا العشرة قالوا : (هى) و (هذه) .

ودليله قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** ﴾ [التوبة : ٣٦]. إذْ قال (منهـا) بعد (اثنى عشر) ، و (هنَّ) بعد (أربعة) [2].

* * *

وفى (ذَيْل الفصيح) للعلامة أبى محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادى فى فصل : (ما يضعه الناس فى غير موضعه) :

(الصباح عند العرب من نصف الليل الأخير إلى الزوال ، ثم المساء إلى آخر نصف الليل الأول) .

فعلى هذا لا تقول : فعلت ذلك البارحة إلا بعد الزوال . وفعلت كذا الليلة : أما قبل الزوال فللماضية ، وأما بعد الزوال فللآتية . وتقول من الغروب : فعلت كذا أمس الأحْدث ، وتقول : صمت أيام البيض ، أي أيام الليالى البيض، ولا تجعل البيض من صفة الأيام .

وتقول : كتبت لثلاث ليال خلون إلي العشر ، فإن زاد على ذلك قلت :

---

(١) تفسير القرطبى : جـ٨ ص ١٣٥ .   (٢) تفسير القرطبى : جـ٨ ص ٣٢٨ .

لإحدى عشرة ليلة خلت إلي النصف ، وبعد ذلك تقول : بقيتْ وبَقِين وبقينا إلى آخر يوم من الشهر فتؤرخه بالسَّلْخ .

وتقول السَّنة لأى يوم عددته إلى مثله ، فقد يدخل فيه نصف الضيف ، ونصف الشتاء ، وأما العام فلا يكون إلا صيفا وشتاء [1] .

وكلام (ابن الجواليقى) يؤيد ما ذكره البغدادى إذ يقول : (السَّنة والعام. عوامُّ الناس لا يفرقون بينهما ، والصواب الفرق . فالسَّنة من أي يوم عددته إلي مثله ، وقد يكون فيه نصف الصيف ونصف الشتاء ، والعام لا يكون إلا صيفا وشتاء متواليين ، فهو أخص من السنة . (أفاده المصباح) .

* * *

وقال ابن قتيبة فى مقدمة كتابه : (أدب الكاتب) في فصل : (ما يضعه الناس فى غير موضعه) : يذهب الناس إلى أنه الفصل (يعنى فصل الربيع) الذى يلى الشتاء ، ويأتى فيه الورد والنَّوْر ... والعرب تختلف فى ذلك :

فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تدرك فيه الثمار ، وهو الخريف ، ثم فصل الشتاء بعده ، ثم فصل الصيف بعد الشتاء ، وهو الذى تدعوه العامة الربيع، ثم فصل القيظ بعده ، وهو الذى تدعوه العامة الصيف .

قال : ومن العرب من يقسم السنة نصفين ، ويبدأ بالشتاء لأنه ذكر ، والصيف أنثى . قال : وإنما جعلوه أنثى لأن النبات يظهر فيه ، ثم يقسم الشتاء نصفين ، فيجعل الشتاء أوله ، والربيع آخره ، ويقسم الصيف نصفين فيجعل الصيف أوله والخريف آخره .

وفى كلام الشيخ عبد القاهر الجرجانى ما يؤيد أن (الربيع) هو الفصل الذى يلى الشتاء ، قال : (فلما أجرى الله العادة ، وأنفذ القضية أن تورق الأشجار ، وتظهر الأنوار، وتلبس الأرض ثوب شبابها صار يتوهم فى ظاهر الأمر ، ومجرى العادة كأن لوجود هذه الأشياء حاجة إلى الربيع فأسند الفعل إليه على هذا التأويل والتنزيل [2] .

---

(١) ص ١١٧

(٢) أسرار البلاغة : ص ٣٥٦ . تحقيق : ريتر .

فهو الفصل (الذى تظهر فيه الأنوار) كما حدّده ابن قتيبة فى قوله على الفصل الذى يذهب الناس إلى أنه الذى يلى الشتاء ، وليس الفصل الذى (تدرك فيه الثمار) .

وكان عبد القاهر يبين المجاز فى قول النبى – ﷺ – : (إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبَطا أو يلم) .

* * *

الشهور

كلها مذكرة إلا جمادى الأولى وجمادى الآخرة ، ويكتبون من شهر كذا في ثلاثة أشهر : شهر رمضان ، وشهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر .

ولو كتب كاتب فى ربيع الأول ، ولم يقل فى شهر أو فى رمضان ولم يقل فى شهر جاز ، وليس بالمختار (١) .

وحكى أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابى : ومنهم من يجيز : جاء رمضان ولا يذكر الشهر ، ولفظ القرآن : « شهر رمضان » .

وقد ذكر بعضهم أنه لا يؤتى باسم (شهر) إلا مع الأشهر التى أولها راء ، وأستثنى من ذلك (رجب) فإنه جاء مع كلمة شهر وبدونها ، وجاء ذلك منظوما (٢) :

ولا تضف شهرا إلى اسم شهر　　إلا لما أوله (الرا) فادر

واستثن منه رجبا فقد وردْ　　بدون شهر وبذا تمَّ العددْ

ومن مجئ (رجب) من غير كلمة شهر قول عبد الله بن الزَّبير الأسدى يتهدد المختار الثقفى ، وصاحب شرطته :

ففى رجب أو غرة الشهر بعده　　تزوركمُ حمُر المنايا وسودُها

وقول الآخر :

لكنه شاقه أن قيل : ذا رجب　　يا ليت عدة حول كله رجب

وقد جاء رمضان من غير شهر فى قول النبى – ﷺ – : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » (٣) .

وفرق سيبويه بين ما جاء معه لفظ شهر مثل : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ

---

(١) السيد محمود شكرى الألوسى . بلوغ الأرب جـ٣ . ص ٢١٨ . الطبعة الثالثة .

(٢) أبو الفرج الأصبهانى . الأغانى جـ١٤ . ص ٢٣١ .

(٣) متفق عليه .

فيه **الْقُرْآنُ** ﴾ وما لم يجئ معه مثل : (من صام رمضان) بأن الأول ظرف والثانى علَم ، ويترتب على ذلك أن الدلالة في الأول على الجزء ، وفي الثانى علي الكل .وقد خالف سيبويه قومٌ فسووا بين شهر رمضان ، ورمضان ، ووافقه جمهور كبير منهم (ابن الطراوة) فقد ذهب فى قول العرب : صمت يوم الجمعة إلي أن يوم الجمعة مفعول به وليس بظرف ، وإنما يكون ظرفا إذا لم يُملأ [١] .

وعزا (السيوطى) هذا الرأى للكوفيين [٢] .

وقد شرح السهيلى كلام (سيبويه) فقال فى التفرقة بين شهر رمضان فى الآية الكريمة ورمضان فى الحديث النبوى الشريف ، فقال : (فى ذكر الشهر فائدتان :

الأولى : أنه لو قال : رمضان الذى أنزل فيه القرآن لاقتضى وقوع الإنزال علي جميعه ، وهذا خلاف المعنى ؛ لأن الإنزال كان فى ليلة واحدة منه .

الثانية : أنه لو قال : رمضان الذى أنزل فيه القرآن لكان حكم المدح والتعظيم مقصوراً على شهر واحد بعينه .

وأما قوله – ﷺ – : « من صام رمضان » ففى حذف الشهر وترك ذكره فائدة أيضًا ، وهي تناول الصيام لجميع الشهر ، فلو قال : من صام شهر رمضان لصار ظرفا مقدرا بفى ، ولم يتناول الصيام جميعه ، فرمضان فى هذا الحديث مفعول على السَّعة ، مثل قوله تعالى : ﴿ **قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [المزمل : ١] لأنه لو كان ظرفا لم يحتج إلي قوله: ﴿ **إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ .

ثم تبخبخ السهيلى فقال : (فقد اتضح الفرق بين الحديث والآية ، فإذا فهمتَ فرْق ما بينهما بعد تأمل هذه الفصول وتدبّرها ثم لم تعدل عندك هذه الفائدة جميع الدنيا بأسرها فما قدرتها حق قدرها ، والله المستعان علي واجب شكرها) [٣] .

---

(١) لعله يريد إذا لم يكن الفعل مستغرقا لليوم كله ، كخرجت يوم الجمعة .

(٢) همع الهوامع : جـ٣ . ص ١٤٨ .

(٣) نتائج الفكر : ص ٣٨٦ .

قلت : ما كان للسهيلى أنه يستعلى بهذه الفروق التى ذكرها :

أولاً : لأن مرجعه فيها إلى (سيبويه) وإلى أستاذه (ابن الطراوة) ، وإلي غيرهما من العلماء السَّابقين .

ثانيًا : لقائل أن يقول إن البعضية المفهومة من الآية ليست من كلمة شهر بل من الحرف (فى) ، والفرق واضح بين أن تقول : قرأت الكتاب ، وقرأت فى الكتاب ، فالظاهر أن العبارتين مختلفتان فى المعنى ، فالأولى تدل على قراءة الكتاب كاملا ما لم تقم قرينة على إرادة المجاز ، والثانية تدل على أنك قرأت صفحات منه ، أو فقرات .

والسُّهيلي نفسه يعتبر تقدير (فى) مفيدا للظرفية ، أى لا يتناول الكلام معها جميع المفعول – كما سبق قريبا – .

ويدل على (البعضية) أيضًا قرينة أخرى ، فى قوله تعالى : ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ وفى قوله– عزّ من قائل – : ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ**﴾

ثالثًا : أن الكلية فى الحديث لم تفهم من حذف أو ترك كلمة (شهر) ، وإنما فهمت من (صام) ، وليس صحيحا أنه لو ذكر شهر لصار ظرفا مقدرا بفى ؛ فإن المتبادر من (صام شهر رمضان) صام الثلاثين يوما ، كما إذا قلت : صمت يوم الجمعة لا يفهم منه إلا أنك صمت اليوم كله ، والقرينة الفعل (صام) ومن هنا جاء صوم يوم عاشوراء ، ويكره صيام يوم الشك .

على أن فى الآية الكريمة هذا الوعد العظيم غفران ما تقدم من الذنوب ، وأحْرِ به أن يكون وعدا سببه صيام الشهر كله .

* * *

وقد بسط القول فى هذه المسألة بوضوح تام (ابن أبى الربيع الإشبيلى) فى كتابه : (البسيط فى شرح جمل الزجاجى) إذْ قال [1] : (اعلم أن ظرف الزمان لا يقتضى أن يكون العمل فيه كله ، وهذا مبنى على أن ما يكون وعاء قد يكون العمل فيه كله ، وقد يكون فى بعضه) .

---

(١) البسيط . تحقيق الدكتور عياد الثبيتى . جـ ١ . ص ٤٨٨ .

ثم ذكر قول (ابن الطراوة) واعترض عليه بأن الأمر محتمل ، وليس بواجب أن يكون الكل أو فى البعض كما ذكر ابن الطراوة من أن اليوم (إنما يكون ظرفا إذا لم يُمْلأ) .

وذكر هنا خلاف من خالف سيبويه فى عدم التفرقة بين : (صمت شهر رمضان) و (صمت رمضان) . وقال : (قد تطرأ طوارئ تخرجه - يريد الظرف- عن هذا الاحتمال ، وتبين أن العمل فى الظرف كله) .

وذكر من ذلك أن يكون جوابا ، والظروف التى تكون واقعة على الدهر كله نحو الأبدَ والدهر ، وما أشبه ذلك ، فإذا قلت : سِرْت الدهر لا تقوله حتي تجعل سيرك كأنه وقع فى الدهر كله على جهة الاتساع والادعاء .

ومنها ما يرجع إلى الفعل نحو صمت يوم الجمعة فالعمل فى اليوم كله لأن الإمساك في بعض اليوم لا يقال له صوم ، وقد سبقه إلي ذلك المبرد [١] ، وبعكسه ما إذا قلت : لقيت فلانا يوم الجمعة ؛ لأن اللقاء لا يمكن أن يكون فى اليوم كله) . وقد تبع المبرد فى هذا أيضاً .

ثم قال : (ومتى عَرِى ظرف الزمان عن هذه المواضع فينبغى الاحتمال) وقد كان دقيقا فى قوله : (وهذا كله إنما أخذ عن العرب ، وليس مأخوذا بالقياس ولا بالنظر) [٢] .

* * *

ثم إن بعض العلماء حكم بالكراهة أن يقال (رمضان) بدون كلمة شهر ، وقد حقق الإمام (النووى) هذا الموضوع أدقَّ تحقيق معتمدا على ما ذكره البخارى والمحققون .

جاء عند شرحه للحديث النبوى الذى رواه نافع عن أنس عن أبيه عن أبى هريرة : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة ، وغُلِّقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين » .

---

(١) انظر المقتضب جـ ٤ . ص ٣٣٢ .
(٢) البسيط جـ ١ . ص ٤٩٠ .

جاء قول النووى : (« إذا دخل رمضان » فيه دليل للمذهب الصحيح المختار الذى ذهب إليه البخارى والمحققون أنه يجوز أن يقال : (رمضان) من غير ذكر شهر بلا كراهة) .

قال رحمه الله تعالى : (وفى هذه المسألة ثلاثة مذاهب :

قالت طائفة : لا يقال رمضان على انفراده بحال ، وإنما يقال : شهر رمضان. هذا قول أصحاب مالك ، وزعم هؤلاء أن رمضان اسم من أسماء الله تعالي فلا يطلق علي غيره إلا بقيد .

وقال أكثر أصحابنا وابن الباقلانى : إن كانت قرينة تصرفه إلي الشهر فلا كراهة ، وإلا فيكره . قالوا : فيقال : صمنا رمضان قمنا رمضان ، ورمضان أفضل الأشهر ، ويندب طلب ليلة القدر فى أواخر رمضان ، وأشباه ذلك ، ولا كراهة فى ذلك كله ، وإنما يُكْرَهُ أن يقال : جاء رمضان ، ودخل رمضان ، وحضر رمضان ، ونحو ذلك .

والمذهب الثالث مذهب البخارى والمحققين أنه لا كراهة فى إطلاق رمضان بقرينة ، وبغير قرينة ، وهذا المذهب هو الصواب ، والمذهبان الأولان فاسدان ؛ لأن الكراهة إنما تثبت بنهى الشرع ، ولم يثبت فيه نهى .

وقولهم إنه اسم من أسماء الله تعالى ليس بصحيح ، ولم يصح فيه شئ ، وإن كان قد جاء فيه أثر ضعيف ، وأسماء الله تعالى توقيفية لا تطلق إلا بدليل صحيح ، ولو ثبت أنه اسم لم يلزم منه كراهة .

وهذا الحديث المذكور فى الباب صريح فى الرد على المذهبين ، ولهذا الحديث نظائر كثيرة فى الصحيح فى إطلاق رمضان على الشهر من غير ذكر الشهر ، وقد سبق التنبيه على كثير منها فى كتاب الإيمان وغيره والله أعلم [1] .

* * *

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٧ : ص ١٨٧ ، ١٨٨ . الطبعة الأولى . المطبعة المصرية بالأزهر .

لا أفعل ذلك أبدا . .

للعرب عبارات مشهورة تعنى بها الاستمرار والدوام فى الفعل أو فى عدم الفعل .

من ذلك – وهى أشهر ما استعمل فى هذا المعنى – ما اقترن بلفظ (الأبد)، وقد نوع العرب فيها . جاء فى القاموس المحيط : الأبد محركة الدهر ، جمعه آباد وأبود ، والدائم والقديم الأزلى ، ولا آتية أبد الأبدية وأبد الآبدين وأبَد الأبَدين كأرضين ، وأبد الأبد محركة ، وأبد الأبيد ، وأبد الآباد وأبد الدهر ، وأبيد الأبيد .

وقد ذكر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادى (ت ٨١٧ هـ) فى كتابه : (بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز) أن لفظ (أبد) ذُكر فى القرآن الكريم فى اثنى عشر موضعا ، ولكن صاحب المعجم الوسيط لألفاظ القرآن ذكر أن هذا اللفظ ورد في القرآن فى ثمانية وعشرين موضعا .

ولأبى على القالى فصل فى كتابه (الأمالى) ذكر فيه كثيرا من هذه الألفاظ : من ذلك : لا أفعله السمر والقمر ، ولا أفعله ما حدا الليلُ والنهار ، ولا أفعله يَدَ المُسنَد ، وهو الدهر . قال الشاعر :

لَقُلت من القول مالا يزا ... لُ يؤثر عنى يَدَ المُسْنَد

ولا أفعل ذلك ما اختلف المَلَوَان والأحَدان ، وهما الليل والنهار ، والجديدان والفَتَيان والعصران . وقيل : العصران الغداة والعشىّ ، قال القالى : وهو الأجود عندنا .

وجاء فى العصرين :

ولا يلبث العصران يوم وليلة ... إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

وفي الملوين قول ابن مقبل :

ألا يا ديار الحىِّ بالسَّبُعان ... أمَلَّ عليها بالبلى الملوان

قلتُ : ومن المشهور فى الجديدين قول الخنساء :

إن الزمـــان وما يفـنى له عجـب   أبقـى لنا ذنباً واســتؤصل الراس

إن الجديدين فى طول اختلافهما   لا يفسـدان ولكن يفسـد الناس

قال أبو على : ولا آتيك سجيس الليالى . وقال اللحيانى : لا أفعل ذلك سجيس الأوْجس وسجيس عَجِيس ، وزاد ابن الأعرابى : وما غبا غُبَيْس .

وفى القاموس المحيط : ولا آتيك سجيس الليـالى ، وسَجيس الأوجَس والأوجُس ، وسجيسْ سُجَيْس أى أبدا .

وقيل فيه : ولا آتيك ما غَبَس غُبيْس كزُبير أى أبدا . لا يعرف ما أصله ، أو أصله الذئب . صُغِّر أغبس مرخما . أى ما دام الذئب يأتى الغنم غِبًّا .

قال : والغَبَس محركة ، والغُبسة بالضم الظلمة ، أو بياض فيه كدرة رماد، وذئب أغبس من غُبس .

قلت : ومن الشعر الذى وردت فيه كلمة (سجيس) قول الشَّنْفَرَى :

فـلا تدفنــونى إنَّ دفنــى محـــرم   عليكم ولكن خـامرى أمَّ عامر

إذا حملوا رأسى وفى الرأس أكثرى   وغُودر عند الملتَـقى ثُمَّ سَـائرى

هنالك لا أرجــو حــياةً تسُــرُّنى   سجيــس الليالى مُبْتَـلا بالجرائر

روى في حماسة أبي تمام ، وفي لسان العرب (سجيس) ورواه ابن قتيبة (سمير) [1] .

وقد ذكر أبو على القالى في أماليه كلمات جاءت فيها (ما) المصدرية الظرفية ، وهذا باب واسع يتسنى لكل متكلم أن يدخل منه ما كانت العبارة تفيد التأبيد .

ومما ذكره أبو على : لا آتيك ما غرَّد الطائر ، وما سجع الحمام ، وما حملت

---

(١) الشعر والشعراء جـ ١ . ص ٨٠ . تحقيق شاكر . وأم عامر : الضبع ، وخامرى : استترى . ويروى : (أبشرى) ، ولعله يريد بأكل جثمانى .

عينى الماء ، وما بلَّ بحرٌ صوفةً ، وما هدهد الحمامُ أى غرَّد ، ولا آتيك حتى ببيضّ القارُ ، وما حَنَّتْ الدهماء ، وهي ناقة ، ولا أفعل ذلك ما جثت النِّيب [١] .

قلت : ومما جاء من ذلك فى الشعر قول أبى خِراش الهذلى فى رثاء أخيه ، ونجاة ابنه ، ويمدح من أجار ابنه ، والشاعر لا يعرف هذا المجيز ، ولا ابنه . قال المبرِّد : وقال الرواة : لا نعرف أحدا مدح من لا يعرف غير أبى خِراش . والبيت :

فوالله لا أنسى قتيلا رُزئتُه ... بجانب قُوسَى ما مشيْت على الأرض [٢]

وقول أبي صخر الهذلى :

ويا حبها زدنى جوًى كل ليلةٍ ... ويا سلوة الأيام موعدُك الحشر

فليْسَتْ عشياتُ الحِمى برواجعٍ ... لنا أبدا ما أبرم السَّلَم النضرُ [٣]

ويلاحظ أن ما ذكره المبرد ، وما جاء فى الأبيات التى أوردتها جاء في حال النّفى ، ولكن أي مانع أن يستعمل مع الإثبات ؟ أقول – مثلا : أذكرك ما طلعت الشمس ، وأقيم هنا ما غرَّد الحمام .

وقال كثير عزة :

أحبك ما دامت بِنَجْد وشيجةٌ ... وما سكنت أُبْلى بها وتُعارُ

وما سال وادٍ من تهامة طيّب ... به قُلُبٌ عادية وكرار [٤]

* * *

---

(١) جـ ٢ : ص ٢٣٢ .

(٢) الكامل جـ ١ . ص ٣٤٧ . ط التجارية . وقوسى : بلد بالسَّراة كانت نحلة قبيلة ثمالة ، وهي قبيلة المبرد .

(٣) أبرم السَّلَمُ : إذا خرجت بُرْمتُه وهى ثمرته ، والسَّلم يثمر دائما ، وهو بالتحريك .

(٤) الوشيج نبت لا يخلو منه نجد ، وأبْلى وتعار : جبلان فى نجد لا يزولان عن موضعهما أبدا ، والقلبُ : جمع قليب . العادية : القديمة . كرار : جمع كرّ وهو بئر صغيرة . انظر (المشوف المعلم) جـ ٢ . ص ٦٦٨ . و(شرح أبيات سيبويه) للسّيرافى ٨٢ / أ .

استعمال بعض ألفاظ الزمن اتساعا

١- من ذلك كلمة (السَّبت) فقد كانت تطلق على أيام الأسبوع مجتمعة، أو بعبارة أدق تستعمل مكان كلمة أسبوع .

جاء ذلك في حديث أنس - رضي الله عنه - الذى ذكر فيه دخول الأعرابى المسجد والنبى - ﷺ - يخطب ، ودعاء الرسول الذى جاء بعده المطر ، وسأذكر الحديث عند الكلام علي الزّمن في الحديث النبوى ، قال أنس: (مارأينا الشمس سَبْتا) :

قال الشوكانى : [هذا كناية عن استمرار الغيْم الماطر ، وهو كذلك فى الغالب ، وإلا فقد يستمر المطر والشمس بادية ، وقد تحتجب الشمس بغير مطر ، وأصرح من ذلك ما وقع فى رواية أخرى للبخارى : (فمطرنا يومنا ذاك ومن الغد، ومن بعد الغد الذى يليه حتى الجمعة الأخرى) .

والمراد بقوله (سبتا) أي من السبت إلى السبت قاله ابن المنيِّر والطبرى .

قال : وفيه تجوز لأن السبت لم يكن مبتدأ ولا الثانى منتهىً ، وإنما عبر أنس بذلك لأنه كان من الأنصار وقد كانوا جاوروا اليهود فأخذوا بكثير من اصطلاحاتهم ، وإنما سمَّوْا الأسبوع سبتا لأنه أعظم الأيام عند اليهود كما أن الجمعة عند المسلمين كذلك .

وفى تعبيره عن الأسبوع بالسبت مجاز مرسل ، والعلاقة الجزئية والكلية .

وقال صاحب النهاية : أراد قطعة من الزمن ، وكذا قال النووى ، ووقع فى رواية (سِتًّا) أي ستة أيام ، ووقع فى رواية أخرى : (فمطرنا من جمعة إلى جمعة)] .
انتهى كلام الشوكانى [نيل الأوطار ٤ / ١٤]

قلت : وقد سها الشوكانى حين فسَّر ستًّا بستة أيام ، وفى إقراره هذه الرواية :

أولاً : لأن العرب كانت تؤرخ بالليالى لا بالأيام .

ثانيا : لأن العدد من صلاة الجمعة الأولى إلي صلاة الجمعة الثانية سبع ليال لا ستّ . وفي الحديث النبوى أن المطر نزل عقب دعاء النبى - ﷺ - مباشرة وأنه انقطع حين دخل الأعرابى في الجمعة التالية ، والنبى على المنبر .

ثالثًا : أن الأفصح في مثل هذا الأسلوب ذكر علامة التأنيث ، وإذا كان تركُها جائزا فحمل كلام الصحابى العربى على الأفصح أولى ، فترك التاء يضعف - مع غيره - من نسبة القول الأنس هذا . وقد ذكر صاحب (لسان العرب) هذا الحديث وقال : وفى الحديث فما رأينا الشمس سَبتا . قيل أراد أسبوعا من السبت إلى السبت فأطلق عليه اسم اليوم [١] كما يقال : عشرون خريفا ، ويراد عشرون سنة .

٢- ومنه كلمة (جمعة) ، وإطلاق هذا الاسم على الأسبوع قديم كذلك ، فقد ورد فى رواية أخرى من حديث (أنس) ، ولفظهُ : (فدامت جمعة) .

كما روى أنه لما توفى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، وكان عليه دَيْن ستة وثمانين ألف درهم أشهد عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - أهل الشورى ، وعددا من الأنصار على أنه ضمن دين أبيه .

قال راوى الخبر : وما مضت جمعة حتى حمل المال إلي عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وأحضر الشهود على البراءة [٢] .

* * *

٣- كلمة (بكرة) وقد سبق أن البكور يكون بعد الصباح ، وقبل طلوع الشمس ، وبعده الغداة .

---

(١) عمر بن أبى ربيعة :

سكنت مشرف الذرا ثم قالت   لا تـزرنا ولا نـزورك سـبـتا

يمكن تفسير (سبت) في هذا البيت بأسبوع ، ويمكن ببرهة من الزمن ، أو بدهر .

(٢) عن كتاب : (لن تلقى مثل عمر) جـ ٢ . ص ٣١٠ تأليف اللواء أحمد كمال الطوبجى .

وقد ذكر المرزوقى : (لو قلت : أتانى بكرة فإنما تأويل ذلك أول النهار لا غير ، المستعمل بلا شرط .

إذا قال : بكر عليه ولم يسم وقتا فإنما يعنى جاء أوله ليلا أو نهارا ، أما إذا قَيَّد كقول ضمرة :

بكرت تلومك بعد وهْنٍ فى النوى   سهلٌ عليك ملامتى وعتابى

والوهن لا يكون إلا ليلا ، فالمعنى : أول ذلك الوقت .

وقوله – عليه الصلاة والسلام – : «بكروا بصلاة المغرب» ليس من بكرة الغداة ، وإنما هو المجئ أول الوقت [1].

وقال الجوهرى فى الصحاح : وتقول أتيته بكرة بالضم أى باكرا ، فإن أردت بكرة يوم بعينه قلت : أتيته بكرة غير مصروف ، وهى من الظروف التى لا تتمكن .

قال : وقد بَكَرتُ أبكُر بكورا ، وبكَّرت تبكيرا ، وأبكرت وابتكرت وباكرت ، كله بمعنىً . وكلٌّ من بادر إلى الشئ فقد أبكر إليه وبكَّر ، أى وقت كان .

قلت : واستعمال شائع عند الخاصة والعامة ، وهو إطلاق (بكرة) على يوم الغد كلِّه ، وكأنه عرف تعارفوا عليه ، وينطقون الكلمة بالهاء لا بالتاء ، وعلى عرفهم هذا : لو حلف ليفعلن ذلك بكره يبرُّ لو فعله فى أى ساعة من ساعات اليوم التالى لأن مبنى الأيمان على العرف ، ولو نطقها بالتاء وهو من أهل العلم لا يبر إلا إذا فعله فى وقت البكور .

وعلى ما ذكره سيبويه يشير إلي توسع آخر . قال : [2] وزعم أبو الخطاب أنه سمع من يوثق به من العرب يقول : آتيك بكرة ، وهو يريد الإتيان فى يومه ،

---

(١) الأزمنة والأمكنة جـ ١ . ص ١٠٥ .

(٢) الكتاب : جـ ٢ . ص ٤٧ ، ٤٨ .

أو في غده ، ومثل ذلك قول الله – عزّ وجل – ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم : ٦٢]

٤- ومن ذلك كلمة الزمان نفسها :

فالزمان يستعمل بمعنى (السلطان) . قال رجل لسفيان الثورى – رحمه الله – أوصنى . قال : أقلل معرفة الناس ، وأنكر من عرفت منهم ، وابدأ بى . وأغضب من شئت ، ودُسَّ إليه من يسأله عنك . فوالله لو لاحَيْتُ رجلا في زمانه – يريد فى سلطانه – فغضب لما أمنت أن يترامى بى غضبه إلي سفك دمى .

قال أبو حيان التوحيدى – بعد أن ذكر هذه الكلمة – وأفرط – أعزك الله – مفرط فى هذا الزمان فقال : لا أقول كما قال سفيان لنقصان دهرنا عن دهره ولكن أقول : أرض من شئت ودُسَّ من يسأله عنك ، وما أنكر – لكثرة الشر في الناس – أن يكون جواب كثير ممن يرضى مثل جواب من يغضب، قال أبو حيان : إلا أنى أرجو ألا تكون هذه القضية عامة [١] .

ويتصل بكلمة الثورى هذه كلمة لسفيان بن عيينة – وكان عالما ثَبْتا ورعا مجمعا علي صحة روايته وحديثه ، روى عنه الشافعي – رحمه الله – حيث يقول ابن عيينة : صحبت الناس خمسين سنة ما ستر لى أحد عورة ، ولا ردَّ عنى غيبة ، ولا عفا لى عن مظلمة ، ولا قطعته فوصلنى .

وأخص إخوانى لو خالفته فى رمَّانة فقلت : هى حامضة ، وقال : هى حلوة لسعى بى حتى يشيط بدمى [٢] .

ومن استعمال الزمن بمعنى السلطان ما جاء فى قول إبراهيم الصولى – وكان أنعت الناس للزمان وأهله غير مدافع – كما يقول ابن خلكان [٣] – قال الصولى حين تولى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات الوزارة وتنكر له . قال :

أخ بينى وبين الدهر   صاحب أينا غلبا

---

(١) الصداقة والصديق ص ٣٩٩ .

(٢) يشيط : يحرق – الصداقة والصديق . ص ٣٧٨ .

(٣) وفيات الأعيان : جـ ٢ . ص ١٢٩ .

صديق ما استقام فإن نبـا دهـر علـىّ نبا

ولو عـاد الزمـان لنا لعـاد به أخًـا حـدبا

وقد أكثر القائلون فى هذا المعنى – تغير الإخوان مع تغير الجاه والسلطان .

يقول الشاعر :

وكـلٌّ إمـارة إلا قـليـلا مغيرٌة الصديق على الصديق

ويقول المدائنى : إذا وَلِى لى صديق فأصبته على العشر من صداقته فليس بأخ سوْء [١] .

ومن استعمال (الزمان) بمعنى (السلطان) – أيضًا – ما جاء في هذه الكلمة المشهورة : (ازْفن مع القرد فى زمانه) وقد نظمها بعض الشعراء ، ونسبها إلي « كسرى » :

إذا رأيـت امـرءًا وضـيعا قد رفع الدهـر من مـكانهْ

فكـنْ له سـامعًا مطـيـعًا معظمًا من عظيـم شـانهْ

فقد سمعنا بأن (كسرى) قد قـال يـومـا لتَرجُـمـانه

إذا زمـان السـباع ولـى فازفن مع القـرد فى زمـانه

وقد خاب سعى الشاعر أحمد بن إبراهيم أحد المنافقين الذين يرقصون مع القرد ، فقال :

سـجدنا للقـرود رجاءَ دنيا حوتـها دوننا أيدى القرود

فمـا بُلّـتْ أنامـلُنا بشـئ رجوناه سوى ذل السـجود

ولا أعرف شيئا عن أحمد بن إبراهيم هذا الذى لم يكتف بالرقص كغيره من حثالات الناس بل تعداه إلي السجود ، ولكن اسمه يدل على أنه مسلم ، وما هكذا يكون حال المسلم .

وقد عجبت لأبى العلاء المعرى ، ذلك الزاهد الثائر ينْصح ، فيقول :

---

(١) الصداقة والصديق : ص ٣٠ .

يقول لك العقلُ الذى بيّن الهدى　　إذا أنتَ لـم تَـدْرأ عـدوًّا فـداره
وقبِّل يد الجانى التى لسـت قادرا　　على قطعها وارقُب سقوط جداره

فداره ، وارقب سقوط جداره . نعم ، أما أرقص واسجد وقبِّل يده فلا .

وقد أصاب الإمام الشافعى – رحمه الله – وأخلص النصيحة فى قوله :

إذا ظالم يستحسن الظلم مذهبا　　ولج عتـوًّا فى قبيـح اكتـسـابه
فكلْه إلى صـرف الليـالى فإنـهـا　　ستُبدى له ما لم يكن في حسابه

والشاعر المسلم العربى أوس بن حَبْناء قارب ، ونصح ، وأحسن النصيحة فى قوله :

إذا المـــرء أولاك الـهـوانَ فـأوله　　هوانا ، وإنْ كانت قريبا أواصـرُهْ
فإن أنت لم تقدر على أن تهينه　　فذره إلي اليوم الذى أنت قادرُهْ
وقاربْ إذا ما لم تكن لك حيـلَةُ　　وصـمِّـم إذا أيقـنت أنك عـاقرُهْ

ولنا فى أئمتنا وعلمائنا أفضل قدوه ، وأكرم أسوة :

غضب الصالح إسماعيل على الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام بن حسن المشهور بالعز بن عبد السلام ، والملقب بسلطان العلماء ، وأمر بخروجه من الشام ، وسار الشيخ إلي منتصف الطريق فبعث إليه الصالح من يرجعه ، فأخذ الرسول يترضّاه ، ويقول له : ما بينك وبين أن تعود إلي مناصبك وما كنت عليه وزيادة إلا أن تنكسر للسلطان ، وتقبّل يده ، فيقول الشيخ : يا مسكين . والله ما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده ، أنتم فى واد ونحن في واد ، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به .

وجاء رجل إلى الإمام ابن تيمية ينذره بوعيد السلطان إذا هو لم يكن عند رأيه ، فقال : ماذا تراهم يفعلون ؟ إن قتلونى فالقتل شهادة ، وإن سجنونى فالسجن خلوة ، وإن نفونى فالنفى سياحة ، وكل واحدة من هذه الثلاث منحة من الله لعبده المؤمن ألبسها الله ثوب المحنة حتى لا يُحسد عليها [1] .

---

(١) وفيات الأعيان : جـ ٥ . ص ١٠٩ .

ومن كلمات محمد إقبال : (يقول مَن لا خلاق له : در مع الدهر حيث دار ، وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه . أمَّا أنا فأقول : إذا لم يسالمك الزمان فصارعه حتى يفئ إلي أمر الله) [١] .

ويقول زكى نجيب محمود : (قد كان من النادر فى مجتمعنا الذى لا يستثنى منه أعلامنا الرواد أن يجئ الحق إلي صاحبه بقوة الحق وحدها ، فإما أن تعامل الناس والعصا فى يدك ، واللفظ الخشن بين شفتيك ، وإما أن يصيبك الإهمال إلا أن يتولاك الله برحمته وعدله) [٢] .

ويقول عبد القادر المازنى (إن الحياء شئ حسن له فضله ومزيته ، ولكنه – علي ذلك – ثوب يحسن أن يخلعه المرء إذا شاء أن يفوز بحقه ، ويظفر بما هو أهل له ، فقد تكون أقوى الناس استعدادا ، وأكثرهم مواهب وملكات ، وأقدرهم على الاضطلاع بالأعباء ، والقيام بخطيرات الأمور ، وجلائل المساعى ويحرمك الحياء أن تجنى ثمرة تعبك ، وزهرة غرسك ، وليس للخجل معنى في الحياة أو نتيجة إلا أن الناس يملأون بطونهم وأنت جائع ، ويدخلون وأنت واقف بالباب ، ويتقدمون وأنت متردد .

واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لن يرفعك الناس إليها ، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضاً ، ويزحزحونك إلى ما وراءها) [٣] .

وهذه الكلمات التى عنوانها : [عش هذه الحياة] :

(لن تمهن إلا إذا تلهفت ، ولن تحتقر إلا إذا توسلت ، ولن تموت إلا إذا انبطحت على الأرض وزحفت ، فالبث واقفا ولو جمدت البث واقفا واحترق تجلدا وتصبرا ، وتعذب وتغلب . احترق ثباتا وتحفزا ، وعش هذه الحياة) .

---

(١) نقلا عن صحيفة الأخبار القاهرية ، بتاريخ ٥ / ٦ / ١٩٩٢ م .

(٢) نقلا عن صحيفة الأهرام القاهرية ، بتاريخ ١٤ / ١ / ١٩٨٩م .

(٣) كتابه (حصاد الهشيم) .

ويستعمل الزمان والزمن بمعنى الإقبال والإسعاد .

من ذلك (زمن جرير) و (زمان ابن أرطاة) :

وفد [١] الشعراء علي عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – حين استخلف، فأقاموا ببابه أياما لا يأذن لهم بالدخول حتى قدم عديٌّ بن أرطاة وكانت له مكانة من عمر ، فقال جرير :

يأيها الرجل المُزْجى مطيتَه   هذا زمانك إنى قد مضى زمنى

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه   أنى لدى الباب كالمصفود فى قَرَن

قال : نعم أبا حزرة ونُعمْى عيْن ، فلما دخل علي عمر قال : يا أمير المؤمنين إن الشعراء ببابك، وأقوالهم باقية، وسِنانُهم مسنونة. قال: يا عدى، مالى وللشعراء؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن النبى – ﷺ – قد مُدح وأَعْطَى، وفيه أسوة لكل مسلم، قال: ومن مدحه؟ قال: عباس بن مرداس، فكساه حلة قطع بها لسانه، واستنشده قول ابن مرداس فأنشده إياه، ثم قال: فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبى ربيعة، قال: لا قرَّب الله قرابته، ولا حيًّا وجهه، أليس هو القائل، وأنشده شعرا لعمر فيه فجور، ثم قال: والله لا دخل على أبدا، ثم ذكر له عديٌّ جميل بن معمر، وكثير عزة والأحوص الأنصارى والفرزدق والأخطل التغلبى وجريرا، وعمرَ – رضى الله عنه – لا يتغير موقفه مع واحد من هؤلاء من موقفه مع ابن أبى ربيعة، يُفَسِّق كل واحد منهم بذكر بعض شعره ثم يقول فو الله لا دخل على أبدا أو كلمة مثلها.

ثم قال: فإن كان ولا بد فهذا – يريد جريرا – فلما مثل بين يديه قال: اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقا، فأنشده رائيته التى مطلعها:

كم باليمامة من شعثاءَ أرملةٍ   ومن يتيمٍ ضعيف الصوت والنظر

فلما انتهى منها قال عمر: يا جرير، والله لقد وَليتُ هذا الأمر وما أملك إلا ثلاثمائة، فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أم عبد الله، يا

---

(١) اعتمدت فى رواية هذه الوفادة على (العقد الفريد) ج ١ ص ٣١٧ وما بعدها، تحقيق سعيد العريان.

غلام أعطه المائة الباقية. فقال جرير. والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مالٍ كسبتُه إلىَّ.

ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم! خرجت من عند أمير يعطى الفقراء، ويمنع الشعراء، وإنِّى عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيت رُقَى الشيطان لا تستفزُّه وقد كان شيطانى من الجنِّ راقيا

* * *

قلت: هذا زمن عدى بن أرطاة: عفةُ وعدل، وحفاظُ على أموال المسلمين، وخَشية من الله، وزهَد فى كاذب المدح والثناء، وإعطاء الفقراء، ومنع الشعراء.

أما زمن جرير فهو زمن الدراهم الحجاجية، والإسراف الأموى، وغَمْرِ هؤلاء الأفاقين المتكسبين بالشعر، بأموال هى من حق غيرهم.

من ذلك ما حكى عن عبد الملك بن مروان:

١ ـ مدحه جرير بقصيدته التى مطلعها:

أتصحوا أم فؤادك غير صاحٍ عشيَّة هم صحبك بالرواح

وذكر فيها أن زوجته (أم حزرة) تمنت أن يعود عليها زوجها بالخير الوفير.

قال عبد الملك: يا جرير. أترى أم حزرة يرويها مائة ناقة من نعم بنى كلب؟ قال جرير: إن لم تروها فلا أرواها الله تعالى. فأمر له بها كلها سود الحدق.

فطمع جرير وقال: يا أمير المؤمنين. نحن مشايخ وليس بأحدنا فضل عن راحلته والأبل أُباق فلو أمرت لى بالرعاء، فأمر له بثمانية، وكان بين يديه صحاف من الذهب، وبيده قضيب، فقال جرير: يا أمير المؤمنين. والمِحْلب، وأشار إلى إحدى الصحاف فنبذها عبد الملك إليه، وقال: خذها لا نفعتك (١).

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩٠ ـ تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد.

٢ - أوقر عبد الملك ناقة ذهبا وفضة، وقال لعمر بن أبى ربيعة، وجميل بن معمر صاحب بثينة، وكثير عزة: لينشدنى كل منكم ثلاثة أبيات فى الغزل، فأيكم أغزل فهى له.

فأنشدوه فاستحسن أبيات عمر فأعطاها له (١).

قلت: وقد تأملت أبيات كل من هؤلاء الشعراء فوقر فى نفسى أن أقلها جودة أبيات عمر. فهل هى عصبية من أمير المؤمنين الذى مكث قاضيا فى المدينة أربعين سنة، وشهد له عليه القوم بأنه لم يحكم أبدا إلا بالعدل؟

* * *

أبو دلف وبكر بن النطاح

مدح بكر بن النطاح أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى القائد بقوله:

يا طالبا للكيمياء وعلمه ... مدْح ابن عيسى الكيمياء الأعظم

لو لم يكن فى الأرض إلا درهم ... ومدحته لأتاك ذاك الدرهم

فأعطاه على هذين البيتين عشرة آلاف درهم، فاشترى بها قرية فى نهر الأُبُلَّة، ثم دخل عليه، فأنشده بيتين آخرين بعرض فيهما بقرية أخرى يعرضها للبيع بعشرة آلاف درهم، فدفعها إليه (٢).

ولم يقتصر العطاء على الشعراء بل تعداهم إلى الرواة، وإن كان هذا قليلا، وإن كان مقبولا إلى حد كبير لكن الإسراف فيه غير مقبول.

استدعى هشام بن عبد الملك حمادا الراوية فجاء من الرُّصافة إلى دمشق فى اثنتى عشرة ليلة، فلما وصل إلى هشام قال له: أتدرى فيم بعثت إليك؟ فقال: لا قال: بعثت إليك بسبب بيت خطر ببالى لا أعرف قائله، قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال:

ودعوا بالصبوح فجاءت ... قينة فى يمينها إبريق

---

(١) حاشية الأمير على مُغنى ابن هشام ج ١ ص ١١، ١٢.

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٧.

فقلت : يقوله عِدىّ بن زيد العبادى فى قصيدة، قال : أنشدنيها .
فأنشدته :

بكر العاذلون فى وضح الصُّبـــ ـــح يقولون لى أما تستفيق
ويلومون فيك يا ابنة عبد اللـــ ـــه والقلب عندكم موثوق
لست أدرى إذ أكثروا القول فيها أعـدوٌ يلومنى أم صـديق ؟!

قال حماد : فانتهيت إلى قوله : فدعوا بالصبوح، قال : فطرب هشام، ثم قال : أحسنت يا حماد . سل حاجتك، وقد ذكر فى أول الحكاية أنه كان عند هشام جاريتان لم ير أحسن منهما قط - قلت : إحدى الجاريتين. قال : هما جميعا لك بما عليهما وما لهما، ثم وصلنى بمائة ألف درهم .

قال ابن حجة الحموى بعد أن نقل هذه القصة ناقلا لها من (درة الغواص) : فانظر أيها المتأمل إلى نفاق رخيص الأدب فى ذلك العصر، وكساد عالية (فى عصرنا) .

وبشهادة الله . إن البيت الذى طُلب حماد الراوية بسببه من بغداد إلى دمشق فى اثنتى عشرة ليلة، وأجيز عليه بالجاريتين والمائة ألف درهم تأنف نفسى أن أضعه فى إحدى قصائدى لرخصه وسفالته وكنت أود أن أكون فى ذلك العصر، ويسمع هشام بن عبدا الملك قولى فى هذا الباب[1] .

وكذلك أجازوا علي الكلمة ترضى غرورهم، وتثلج صدورهم .

قالوا : ودخل أبو العميثل على طاهر بن الحسين متمدّحا، فقال : ما أخش شاربك يا أبا العميثل!

فقال : أيها الأمير : إن شوك القنفذ لا يضر برثن الأسد ، فضحك، وقال : إن

---

(١) ثمرات الأوراق - على هامش محاضرات الأدباء ج ١ ص ٨٤، ٨٥ .

هذه الكلمة أعجب إليَّ من كل شعر، وأعطاه للشعر ألف درهم، ولكلمته هذه ثلاثة آلاف درهم [١].

ولم تشهد العصورُ التى تلت زمنَ (ابن أرطاة)، ولكنها شهدت زمن (جرير)، بل أسرفت الإسراف كله، ولو أن باحثا تتبع ما بذله الممدوحون للمادحين لضاقت بطون الصحف، ولكن يكفى من القلادة ما أحاط بالعنق.

المائة ألف والضيعة التى تدر مائة أخرى على البيت والبيتين ووزن القصيدة ذهبا أحيانا، ويحتال الشاعر فيكتبها على صخرة فيُعطى وزنها مهما بلغ، وفاء الممدوح بوعده – زعموا – !!.

لما عقد هارون الرشيد البيعة لابنه محمد الأمين، قال سلم الخاسر بيتين يؤيد بهما ولاية هذا العهد فملأت (زبيدة) أم الأمين فاه درًّا باعه بعشرين ألف دينار!

ويُروى أن (مسلم بن الوليد) مدح (الرشيد) فأعطاه مائتى ألف، ثم مدح (يزيد بن مزيد الشيبانى)، فأعطاه مائة ألف وتسعين ألفًا، وإنما نقصه عن المائتين حتى لا يتسامى عطاؤه إلى عطاء الرشيد، وأقطعه إقطاعا تبلغ غلته مائتى ألف درهم.

وقد حدثوا أن (سلْما) الذى باع مصحفا، واشترى بثمنه طنبورا، فأطلقوا عليه لقب (الخاسر) عاش على عطايا الخلفاء، وقد أحصوا ثروته حين مات فكانت خمسين ألف دينار من الذهب، وألف ألف وخمسمائة من الفضة والضياع.

ولعل أكثر ما قاله هؤلاء الشعراء، أصحاب زمن (جرير)، لعل أكثره باطل وزور.

وفى هذا يقول أبو المظفر الأبِيوَرْدى [٢]:

---

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٩٠. طبعة أولى.

(٢) أبو المظفر محمد بن أبى العباس ينتهى نسبه إلى أبى سفيان بن حرب، كان راوية نسابة شاعرا ظريفا. وكان أوحد زمانه فى علوم عديدة، حسن الاعتقاد، فصيح الكلام، وكان فيه تيه وكبر وعزة نفس. توفى سنة ٥٥٧ هـ بأصبهان مسموما.

ومدائح تحكى الرياض أضعتها ... فى باخِل عيَّت به الأحساب
فإذا تناشدها الرواة وأبصروا المم ... ـدوح قالوا شاعر كذابْ

ويقول ابن الرومى:

إن كنت من جهل حقى غير مكثرت ... أو كنت من ردِّ مدحنى غير مُتَّئِب
فأعطنى ثمن الطرس الذى كُتبت ... فيه القصيدة أو كفارة الكذب

* * *

الزمن فى القرآن الكريم

لم ترد كلمة زمن ولا زمان فى القرآن الكريم، وإنما وردت كلمات: «السنة» مفردة ومجموعة، «والحول» مثنّى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ومفردا فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]

وورد (العام) فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وفى آيات أخر، وورد مضافا فى قوله تعالى: ﴿فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، ومثّنى فى قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

والشهر واليوم والليلة والليل والنهار والعشاء: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]. والعشية: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، والعشى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨]، والسحر والبكرة والغداة والغدو والفجر والصبح والضحى والأصيل – مفردا ومجموعا – والحين والأبد والأمد والسرمد، والعصر، وبضع سنين. وورد اليوم مضافا فى مواضع: يوم الفرقان يوم الحج. يوم حنين. يوم الفصل. يوم الدين. يوم القيامة. يومئذ. يومكم. يومهم. ومثنى ومجموعا ومضافا إليه وموصوفا. ﴿أيام الله﴾. ﴿أيام الذين خلوا﴾.

وورد من أسماء الفصول الشتاء والصيف، ومن أسماء الشهور رمضان لا غير، ومن أسماء الأيام الجمعة والسبت، ومن الظروف قبل وبعد وناشئة الليل وأطراف النهار وآناء الليل. ومن أسماء الاستفهام أين ومتى. ومن الأفعال:

تصبحون وتمسون وتظهرون، وأصبحوا وغَدَوْا. ومن المشتقات موقوتا، ومصبحين ومشرقين.

* * *

وقد جاءت الأزمنة في القرآن الكريم لمجرد العدد: ﴿ **سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ** ﴾ [الحاقة: ٧]. ﴿ **فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٤٢]. وللإمتنان: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ [النحل: ١٢]، ولأن الزمن آية من آيات الله: ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ** ﴾ [الإسراء: ١٢]. ولبيان حكم شرعي: ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ...** ﴾ الآية . وللقسم في كثير من آي القرآن.

وقد وقع الزمن فاعلا في كثير من الآيات. من ذلك قوله تعالى في قصة يوسف – عليه السلام – وهو يفسر رؤيا الملك: ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ** ﴾ [يوسف: ٤٨]. أي سنون سبع شداد.

ومن القضايا التي جاءت في القرآن الكريم مرتبطة بالزمن:

١ – **قضية القائلين بالدهر**، ويسمَّون (الدَّهريين). وأصل مقالتهم عند الهنود.

قال الحكيم: الفاعل هو الله، وقال قوم: الفاعل هو النفس، وقال آخرون: الفاعل هو الزمان، فإن العالم مربوط به رباط الشاء بحبل مشدود بها[(١)].

ثم انتقل هذا المذهب إلى العرب ، فقوم منهم عطلوا المصنوعات عن صانعها، قال الشهرستاني عند الكلام على الدهرية: (وهم قوم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا: الطبع المحيي، والدهر المُفني: ﴿ **وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ** ﴾.

---

(١) أبو الريحان البيروني – تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذولة، نقلا عن كتاب (أبو الريحان البيروني) لأبي الفتح محمد التوانسي ص ١٠٥.

وقال الألوسى فى (بلوغ الأرب ٢ / ٢٢٢) : إنَّ تُبَّعًا الأقرن كان من القائلين بالدهر، ونُسب إليه هذا البيت :

منع البقاء تقلبُ الشمس   وطلوعُها من حيث لا تمس

قلت : ومن العجيب أن فريقا من المفسرين، ومنهم الطبرى يقولون إن القائلين بالدهر هم مشركو العرب . هكذا بالتعميم، وبعضهم قال : هم قريش .

وهذا وذاك مردودان لأن آيات القرآن صريحة فى أن منهم من يعترف بالخالق عز وجل، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الزخرف : ٩]

ومنهم من كان يعترف بالخالق وبالنبوات وبالبعث وهم المتحنفون الذين كانوا على ملة إبراهيم عليه السلام .

ومنهم من كان يعبد الأوثان، ويقرُّ بالخالق، ويقولون عن الأوثان ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ [الزمر : ٣]

ومنهم من كان يُقر بالخالق وينكر النبوات والبعث، وهؤلاء هم الذين ورد فى حقهم : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾ [المؤمنون : ٣٧] . ﴿ **وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾ [الأنعام : ٢٩]

*   *   *

٢ - النسئ :

قال الشهرستانى : (كان العرب يحرمون الأشهر الحرم فلا يغزون فيها ولا يقاتلون إلا طيئا وخَثْعمًا وبعض بنى الحارث بن كعب، فإنهم كانوا لا يحجون ولا يعتمرون، ولا يحرمون الأشهر الحرم، ولا البلد الحرام) .

وكان منهم من يُنسئ الشهور، وكانوا يكبسون فى كل عام شهرين، وفى كل ثلاثة أعوام شهرا، وكانوا إذا حجوا فى شهر من هذه السنة لم يُخطئوا أن يجعلوا يوم التروية ويوم عرفة ويوم النحر كهيئة ذلك فى شهر ذى الحجة حتى

يكون يوم النحر يوم العاشر من ذلك الشهر، ويقيمون بمنى فلا يتبعون فى يوم عرفة ولا فى أيام منى، وفيهم نزلت: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧] (١).

ومجمل كلام المرزوقى فى (الأزمنة والأمكنة) أن قوما من بنى كنانة يقال لهم (بنو فقيم) كانوا يتولون النَّسْء فكان يقوم رجل منهم يقال له: (نعيم بن ثعلبة) وكان رئيس الموسم فى الجاهلية إذا أرادوا الصدر، فيقول: أنا الذى لا أُعاب ولا أخاب، ولا يُرد لى قضاء، فيقولون: صدقت. أنسئنا شهرا. يريدون أخر عنا حرمة المحرم، واجعلها فى صفر فيفعله، فيحلون فى المحرم ما كان فيه حراما من قتال، وسفك دم، واستباحة، ويحرمون فى صفر ما كان مباحًا عندهم ليواطئوا عدة ما حرم الله.

وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن الأشهر الحرم فى الجاهلية كانت عشرين من ذى الحجة ثم المحرم ثم صفرا، وشهر ربيع الأول، وعشرا من شهر ربيع الثانى.

وقد روى عن مجاهد أنه قال: كانت العرب فى الجاهلية يحجون عامين فى ذى القعدة وعامين فى ذى الحجة، فلما كانت السنة التى حج فيها أبو بكر – رضى الله عنه – كان الحج فى السنة الثانية من ذى القعدة، وهى حجة قراءة (براءة) ثم حج النبى – ﷺ – فى ذى الحجة، فذلك قوله: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، ألا إن السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم متوالية: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان).

ومعنى (استدار كهيئته) هو أنهم كانوا يحلون المحرم، ويحرمون صفرا، وكانوا يحتاجون فى سنة أخرى إلى تحليل صفر وتأخيره إلى الشهر الذى بعده. وهكذا. حتى يدور التحريم على شهور السنة كلها، وقد رجع المحرم إلى موضعه (٢).

* * *

---

(١) الملل والنحل ج ٤ ص ١٣٠. (٢) ج ١ ص ٨١.

وقد سبق أبو على القالى إلى نسبة النسئ، وجعله فى بنى كنانة، وصاحبه – كما ذكر – نعيم بن ثعلبة، وذكر قوله السابق إلا أنه زاد أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا تمكنهم الإغارة فيها لأن معاشهم كان من الإغارة، وأنه – يعنى فقيم بن ثعلبة – كان فى السنة التالية يحرم عليهم المحرم، ويحل لهم صفرا.

وذكر أبياتا فى الفخر بهذا الصنيع، منها:

ألسنا الناسئين على معدٍّ   شهور الحل نجعلها حراما

وشرح الكلمة فقال: (والعرب تقول: نسأ الله فى أجلك، وأنسأ الله أجلك، أى أخر الله أجلك، وقال النبى – ﷺ –: (من سَّره النَّساء فى الأجل، والسَّعة فى الرزق فليصل رحمه) والنَّساء التأخير يقال: بعتُه بنَساء وبنسيئة أى بتأخير، وأنسأته البيع. ثم ذكر الآية، كما أورد هنا قوله تعالى: ﴿ **ما نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسأها** ﴾ وعليها بنى هذا الفصل [1].

٣ – هجرة النبى – ﷺ –:

أكثر ما قيل فى هجرة رسول الله من مكة إلى المدينة معروف مشهور، ولكن نعرض هنا لمسألة أخطأ فيها بعض الباحثين.

والقرآن الكريم أشار إلى هذه الهجرة فى سورة (براءة) فى قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** ... ﴾ الآية.

ومسألتنا – هنا – متى كانت الهجرة؟.

الثابت عند أهل العلم – بل عند العامة – أن النبى – ﷺ – وصل إلى المدينة فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول، وإن كان لبعض الباحثين رأى:

١ – حقق محمود باشا الفلكى فى رسالة سماها: (نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام) أن دخول النبى – ﷺ – المدينة كان فى يوم الاثنين ثامن ربيع الأول الموافق للعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢م.

---

(١) أبو على إسماعيل بن القاسم البغدادى – كتاب الأمالى ج ١ ص٤.

والذى استخلصته مما كتبه أصحاب السير والمحققون من القدماء والمحدثين يحدد أيام الهجرة كما يلى:

خرج النبى - ﷺ - من مكة مساء الخميس السابع والعشرين من صفر، ومكث فى غار حراء ثلاثة أيام: الجمعة والسبت والأحد، وفى يوم الاثنين الموافق أول شهر ربيع الأول خرج من الغار متوجها إلى المدينة، ومكث فى الطريق ثمانية أيام فوصل قباء فى الثامن من هذا الشهر، ومكث فيها ثلاثة أيام، وفى يوم الخميس بنى مسجد قباء، ثم توجه إلى المدينة فنزل عند بنى سليم، وصلى الجمعة هناك، ثم دخل (يثرب) فى عصر ذلك اليوم.

فمن اعتبر وصول النبى إلى قباء بدء وصوله إلى المدينة اعتبر الهجرة تمت فى الثامن من شهر ربيع الأول، وهو يوافق اليوم العشرين من شهر سبتمبر عام ٦٢٢م، والعاشر من شهر (تشرى) عند اليهود، عام ٤٣٨٣، ومن اعتبر دخول المدينة نفسها اعتبر تمام الهجرة فى الثالث عشر من ربيع الأول.

ومعروف أن سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ابتدأ بشهر المحرم حين وضع التاريخ، وقد اغتر بعض الكاتبين بصنيع عمر هذا فزعم أن هجرة الرسول كانت فى أول المحرم.

نشرت الكاتبة الفاضلة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) فى عدد صحيفة الأهرام الصادر فى ٣٠/٤/١٩٦٥م مقالا بعنوان (بدء التاريخ) ذهبت فيه إلى أن رسول الله - ﷺ - بدأ هجرته فى اليوم الأول من المحرم على رأس السنة الثالثة عشرة من مبعثه، وفى ذلك تقول: (وتواعدوا - تريد فتيان قريش - على اللقاء سرًّا لاغتياله فى ليلة بعينها من ليالى المحاق قبل أن يهل هلال المحرم). ثم تقول: (وحرس الله نبيه فعميت أبصارهم حين خرج من بيته فى تلك الليلة، وهم يتأهبون لقتله مُتَعَوّذا منهم بآيات ربه).

وتقول فى مقدمة المقال: (بعد غد يتم عام القمر دورته، ويبزغ هلال المحرم

مجددا ذكر اليوم الأغر الذى تفرد بشرف اختياره بداية للتقويم الإسلامى دون غيره من الأيام، ذلك يوم هجرة الرسول - ﷺ - من مكة إلى يثرب).

والواضح من كل ذلك أن الكاتبة الفاضلة تعتقد أن قريشا أئتمرت بقتل رسول الله، وعزمت على تنفيذ قتله فى ليلة الثامن والعشرين من ذى الحجة، وأن النبى خرج من داره فى تلك الليلة قاصدا (غار ثور)، وبعد أن مكث فيه ثلاثة أيام خرج مهاجرا إلى المدينة فى أول المحرم، وأن المسلمين اتخذوا هذا اليوم بدءاً للتقويم الهجرى؛ لأنه اليوم الذى هاجر فيه الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

ولم تذكر الكاتبة دليلا واحدا من كتب التاريخ، أو كتب السيرة على رأيها هذا، مع أنه مخالف لما أجمعت عليه هذه الكتب من أن هجرة الرسول - ﷺ - كانت فى شهر ربيع الأول.

ولو أنها عللت لاختيار المحرم بدءاً للتاريخ الإسلامى بما علله به بعض الباحثين ، من أن النبى - ﷺ أذن لأصحابه بالهجرة إلى المدينة فى المحرم لكانت قد ذهبت إلى رأى [1].

* * *

(١) ذكرت هذا البحث : (بدء هجرة الرسول) فى كتابى : (مع الرسول)، وفصلت القول فيه، فمن أراد زيادة عما ذكرته هنا فليرجع إلى هذا الكتاب.

الزَّمن فى الحديث النبوى

من الصعوبة بمكان حصر ما ورد من كلمات الزمن فى الحديث الشريف، وليس هذا – أيضا – من غرض هذا البحث، وإنما هو المثال والأنموذج.

١ – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: (قال الله تعالى: يسُبُّ ابن آدم الدهر، وأنا الدهر بيدى الليل والنهار).

وفى رواية أخرى. قال: (قال الله – عز وجل –: يؤذينى ابن آدم. يسُبُّ الدهر، وأنا الدهر أقلِّب الليل والنهار).

وثالثة. قال: (قال الله – عزّ وجل –: يؤذينى ابن آدم. يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإنى أنا الدهر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما).

رابعة. قال رسول الله – ﷺ – لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر [1].

قال العلماء: وهو مجاز، وأما الدهر فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى، ومعنى (فإن الله هو الدهر) أى فاعل النوازل والحوادث وخالق الكائنات.

* * *

٢ – عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال: جلس رسول الله – ﷺ –، وجلسنا حوله، فقال: إنى أخاف عليكم بعدى ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها. قال: فقال رجل: أو يأتى الخير بالشر يا رسول الله! قال: فسكت عنه رسول الله – ﷺ – ورأينا أنه ينزل عليه، فأفاق يمسح عنه الرُّحَضَاء، وقال: أين السائل؟ وكأنه حمده، فقال: إنه لا يأتى الخير بالشر، وإن

---

(١) البخارى ومسلم.

مـمَّا يُنبت الربيعُ مـا يقـتـل حبَطا أو يُلم، إلا آكلة الخُضَـر فإنهـا أكلت حـتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت، وإن هذا المال خضرة حُلْوة، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى المسكين واليتيم وابن السبيل، وإنه من يأخذه بغير حقه، فهو كالآكل الذى لا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة [١].

قال الأزهرى: إن أبا عبيدة فسَّر (الحبَط) وترك من تفسير هذا الحديث أشياء، لا يستغنى أهل العلم عن معرفتها، فذكرت الحديث على وجهه لأفسِّر منه كل ما يحتاج من تفسيره.

ثم قال : وإنما تقصَّيت هنا رواية هذا الخبر لأنه إذا بُتر استغلق معناه .

وفيه مثلان ضرب أحدهما للمفرط فى جميع الدنيا مع منع ما جمع من حقه، والمثل الآخر ضربه للمقتصد فى جمع المال وبذله فى حقه.

فأما قوله – ﷺ –: (وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا) فهو مثل الحريص والمفرط فى الجمع والمنع، وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب التى تحلولها الماشية فتكثر منها حتى تنتَفخ بطونها وتهلك، كذلك الذى يجمع الدنيا، ويحرص عليها، ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها يهلك فى الآخرة بدخول النار، واستيجاب العذاب.

وأما مثل المقتصد المحمود فقوله – ﷺ –: (إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت)، وذلك أن الخضر ليس من أحرار البقول التى تستكثر الماشية منها فتهلكها أكلا، ولكنه من الجَنَبَة التى ترعاها بعد هيج العشب ويُبْسه) [٢].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٧ ص ١٤٠ وما بعدها وقد أورد مسلم لهذا الحديث ثلاث روايات.

(٢) نقلا عن (النهاية فى غريب الحديث والأثر) لمجد الدين المبارك بن الأثير ج ٢ ص ٤٠. ط أولى، والحبط – بفتح الحاء والباء –: التخمة، والخضر: روى بضم الخاء وفتح الضاد، وبفتح الخاء وكسر الضاد. وثلطت: ألقت بعرها رقيقا.

٣ – عن أنس – رضى الله عنه – قال: قحط المطر عاما فقام بعض المسلمين فى يوم جمعة، فقالوا: يا نبى الله. قحط المطر، وأجدبت الأرض، وهلك المال. قال: فرفع رسول الله – ﷺ – يديه، وما نرى فى السماء سحابة، فمدَّ يديه حتى رأيت بياض إبطيه يستسقى الله، فقال: فما صلينا الجمعة حتى همَّ الشَّابَّ القريب الدار الرجوعُ إلى أهله، فدامت جُمَعة فلما كانت الجمعة التى تليها قالوا: يا رسول الله تهدمت البيوت، واحتبس الركبان، قال: فتبسَّم رسول الله – ﷺ – لسرعة ملالة ابن آدم قال بيده: اللهم حوالينا، ولا علينا. قال: فتكشّطت عن المدينة [1].

وفى الحديث رواية أخرى:

عن أنس – رضى الله عنه – أن رجلا دخل المسجد يوم جمعة من باب نحو دار القضاء ورسول الله – ﷺ – قائم يخطب، فاستقبل رسول الله – ﷺ – قائما ثم قال: يا رسول الله. هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله يُغيثنا، فرفع رسول الله – ﷺ – يديه ثم قال: اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا.

قال أنس: ولا، والله ما نرى فى السماء من سحاب، ولا قزعة (سحاب متفرق)، وما بيننا وبين سَلْع من بيت ولا دار.

قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال: فلا، والله. ما رأينا الشمس سبْتا.

قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ورسول الله – ﷺ – قائم يخطب فاستقبله قائما، فقال: يا رسول الله. هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله يُمْسِكهُا عنا.

قال: فرفع رسول الله – ﷺ – يديه، ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا،

---

(١) قال البغوى: هذا حديث متفق على صحته – شرح السنة ٤ / ٤١٦.
قحط: حُبس. تكشطت: تكشفت عن المدينة.

اللهم علىٰ الآكام (التلال) والظِّراب (الجبال الصغار والروابى) – وبطون الأودية، ومنابت الشجر، فانقطعت، وخرجنا نمشى فى الشمس [١].

قال النووى : (ما رأينا الشمس سبتا) هو بسين مهملة، ثم باء موحدة، ثم مثناة فوق، أى قطعة من الزمان، وأصل السَّبت القطع، وفى القاموس : السبت : الدهر.

والحديث الثانى يؤيد رواية مسلم؛ لأنه إذا أمطرت السماء وقت صلاة الجمعة، وبقيت إلى وقتها من الأسبوع التالى كان ذلك سبعة أيام لا ستًّا.

وقد صرح النووى بأنها سبعة أيام بقوله : (ومرادى بهذا الإخبار عن معجزة رسول الله – ﷺ –، وعظيم كرامته على ربه – سبحانه وتعالى – بإنزال المطر سبعة أيام متوالية، متصلا بسؤاله من غير تقديم سحاب ولا قزع، ولا سبب آخر، لا ظاهر ولا باطن، وفى رواية (البخارى) : (فدعا فمُطرنا فما كدنا نصل إلى منازلنا، فما زلنا نمطر إلى الجمعة المقبلة).

قلت : وفى الروايتين جاءت (الفاء) فدلت على أن المطر كان عقب الدعاء مباشرة، وكذلك الانقطاع كان عقب الدعاء الثانى بدون تراخ.

٤ – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – أنه قال : (أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك) [٢].

* * *

(١) رواه البخارى، ومسلم، واللفظ لمسلم. (فتح البارى ج ٢ ص ٥٨٩).

(٢) رواه الترمذى، وقال : حديث حسن.

الزمن فى الأمثال

(١)

(عند الصباح يحمد القوم السرى)

يضرب فى الصبر على مكابدة الأمور لما فى عواقبها من المحامد

قيل: إنه للأغلب العجلى.

(٢)

(ما يوم حليمة بسر):

هى حليمة بنت الحارث بن أبى شَمِر كان أبوها وجه جيشا إلى المنذر بن ماء السماء، فأخرجت طيبا فى مِرْكن فطيَّبتهم. وهى التى ذكرها النابغة الذبيانى فى قوله يصف السيوف:

تُخُيِّرن من أزمان يوم حليمة   إلى اليوم قد جُرِّبن كلَّ التجارب

يضرب (يوم حليمة) لكل أمر متعالم مشهور.

(٣)

(وهل يخفى على الناس القمر).   يضرب فى الشهرة – وفى رواية (النهار)

(٤)

(عش رجبا تر عجبا).

(٥)

يوم بيوم الحفَض المجوَّر)   يضرب لمن يجازى صاحبه بمثل فعله.

وأصله أن أخوين كان لأحدهما بنون ولم يكن للآخر ولد، فوثبوا على عمهم فجَّوروا بيته، أى ألقوه على الأرض، ثم نشأ للآخر بنون فوثبوا على عمهم فجوروا بيته، فشكا إلى أخيه، فقال: (يوم بيوم الحفَض المجور [١])!!

---

(١) أمالى القالى ج ٢ ص ١٩٢.   والحفَض: متاع البيت.

(٦)

(ما أشبه الليلة بالبارحة) - يضرب فى الأمور المتساوية

(٧)

(اليوم خمر وغدا أمر) .

قاله امرؤ القيس لما جاءه خبر مقتل أبيه، وهو يشرب الخمر، يضرب لحوادث الدهر الجالبة للمحبوب والمكروه .

(٨)

زمن الورد . يضرب به المثل فى الحسن والطيب، قال أبو الفرج الببغاء :

زمن الورد أطيب الأزمان ... وأوانُ الربيع خير أوان

أشرف الزهر زار فى أشرف الدَّهـ ... ـر فَصلٍ فيه أشرفَ الفتيان

وقال ابن سُكَّرة الهاشمى [١] :

وعازلةٍ هبَّت بليل تلومُنى ... وما عندها من لذة القَصْفِ ما عندى

تُوبِّخنى بالشيب والشيب مرشد ... لعمرى، ولكن لست أرشد للرشد

فقلت لها : كفى الملام فإننى ... بطىءٌ عن العذَّال فى زمن الورد

(٩)

(إنَّ غدا لناظره قريب) . يضرب فى قرب الأمر، وعدم اليأس، يقول هُدبةَ ابن خَشرم :

فإن يَكُ صدر هذا اليوم ولَّى ... فإن غدا لناظره قريب

(١٠)

(زاحِمْ بعَوْدٍ أو فَدعْ) . لا تستعن على أمورك إلا بأهل السن والمعرفة .

وأصل (العَوْد) فى الإبل، وهو الذى جاز فى السنّ البازل .

---

(١) ثمار القلوب ص ٦٤٤ .

(١١)

(رأىُ الشيخْ خيرٌ من مَشْهد الغُلام).

(١٢)

(كل امرئ فى بيته صبى). قال أبو عبيد: يعنى فى حسن الخلق، والمفاكهة واللهو ونحوه، وقد جاءنا مثله أو نحوه عن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت - رحمهما الله - [١].

فأما حديث عمر فإنه قال: ينبغى للرجل أن يكون فى أهله كالصبى، فإذا التُمِس ما عنده وُجد رجلا.

وأما حديث زيد بن ثابت فإنه كان من أفكه الناس فى أهله، وأزمتهم إذا جلس مع القوم [٢].

(١٣)

ومن أمثالهم فى الكتْمان: (الليل أخفى للويل). يقول: (فافعل ما تريد ليلا فإنه أستر لسرِّك) [٣].

(١٤)

الليل طويل وأنت مقمر. يضرب مثلا فى التأنى والصبر على الحاجة حتى تُمْكِن، ومعناه: اصبر على حاجتك فإنك تجدها فى بقية ليلتك فإنها طويلة، وليس فيها ظلمة تمنعك.

* * *

(١) الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام ص ١٥٩. والزماته الوقار.

(٢) الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام ص ٦١.

(٣) قائله السليك بن السلكة. انظر فى أصله جمرة الأمثال لأبى هلال العسكري ج ١ ص ١٣٠.

الزمن عند الأدباء

هذا باب واسع، ممتد الأطراف، كثير الشعب والشّعاب، يحتاج فى جمع مادته إلى زمن طويل وإلى مجهود شاق، وربما شغل مجلدات، ثم تبقى منه خبايا وزوايا يخطئها نظر العراف الخَرِّيت.

ولما لم يكن الغرض من هذه الوقفة - كما يشير إليه عنوانها - الجمع والاستقصاء فسأكتفى بما يمكن أن يكون عناوين لألوان تعامل الأدباء مع الزمن، فأشير إلى أصول الفصول مصحوبة ببعض النماذج حتى لا يتشعب القول، ويضل القلم،وتكل القريحة، ويعرض القصور والتقصير، وتحبس النفس دون الغاية.

وليس يخفى على أحد ممن يطالعون فى الأدب العربى أنه ما من كاتب ولا شاعر ولا عالم إلا أدار فى كلامه كثيرا من ألفاظ الزمن كأنها طبيعة فى الجميع.

وأكثر الشعراء والكتاب استخداما لهذه الألفاظ هم الضائقون بالحياة، والناقمون عليها، وأوغلهم فى ذلك من غلبت السوداء على أمزجتهم، وملك عليهم التشاؤم حواسهم.

كما أنا إذا تعدينا الأدباء والعلماء إلى العامة وأشباه العامة، ورصدنا ألفاظهم وعباراتهم فى معاشهم، بل فى حاجاتهم الأولية ازدحمت علينا ألفاظ الزمن التى يستخدمونها.

وكأن الجميع يتورعون أن يعتبوا على المقادير، ويتحاشون إسناد ما يضيقون بحمله إلى القدر، فهم يصرفون همومهم إلى الزمن، ويلقون بمتاعبهم على الأيام والليالى، وعلى صروف الدهر.

وما أذكر أننى سمعت متحدثا - وبخاصة فى معرض الشكوى - خلا قوله من العتاب على الأيام، وإلقاء أسباب آلامه على عاتق الزمن.

وربما تشعر أحيانا وأنت تقرأ أو تستمع أن الشاكى إنما يعد الزمن خصما

لدوداً، وعدوا كبيرا، وطاغية يتحكم فى مصائر الناس وأقدارهم. والدنيا - وهى الزمن الأول - قد منيت بأشنع الشتائم، وأقذع السِّباب، ويكفى أن تعبرُ ديوانا واحدا من الدواوين الكثيرة التى حفلت بشعرنا العربى، وهو ديوان (اللزوميات) لأبى العلاء المعرى لتقف على العيوب والمذام التى حظيت بها الدنيا من لسان هذا الشاعر، أو فيلسوف الشعراء. من ذلك قوله:

خسستِ يا أمنا الدنيا فأفٍّ لنا ... بنو الخسيسة أو باش أخساء

إذا تعطفت يوما كنت قاسية ... وإن نظرت بعين فهى شَوْساء

ومن قبله تحدث بشار بن برد عن أهل زمانه، ومثَّل بينهم وبين زمن قريب شهده، فقال: (لقد عشت فى زمان، وأدركت أقواما لو اختلقت الدنيا ما تجملت إلا بهم، وأنا الآن فى زمان ما أرى فيه عاقلا حصيفا. ولا فاتكا ظريفا، ولاناسكا عفيفا، ولا جوادا شريفا ولا خادما نظيفا، ولا جليسا خفيفا، ولا من يساوى على الخِبْرة رغيفا) [1] وأنشد:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التى كنت أعرف

فهل كان زمن بشار أسوأ من زمننا هذا؟[2]

* * *

---

(١) مثَّل: هى اللغة الفصحى فى معنى (قارن). اختلقت: تطيبت، والمعروف (تخلقت). (الخِبْرة) بالموحدة: الاخبا. الفاتك: الجرئ الشجاع.

(٢) نقلا عن مجلة الأزهر. المجد العاشر. ص ٣٧٣.

وصف الزمن

لعل من أشهر من وصفوا الزمن في القديم أبو محمد الحسن بن علي التِّنِّيسي، وهو شاعر، وعالم بارع، قد برع في إبَّانه على أهل زمانه، فلم يتقدمه أحد في أوانه، وأصله من بغداد، ومولده بتِنِّيس [1]، وهي مدينة بديار مصر، بالقرب من دمياط، وبها توفى سنة ٣٩٣ هـ.

وصف أزمنة السنة بمزْدَوَجَةٍ ابتدأها بقوله:

يا سائلي عن أطيب الدهور ... وقعتَ في ذاك على الخبير

سألتني أي الزمان أحلى ... وأيه بالقصف كان أولى

عندي في وصف الفصول الأربعة ... مقالة تغني اللبيب مُقنعة

وقد ابتدأها بوصف (الصيف)، وهو يذكره بنار سقر، ويرى فيه النبت مقشعرا، وهو فصل تتحرك فيه العقارب والحيات.

يعلو به الكرب ويشتد القلق ... وتنضج الأبدان فيه بالعرق

وقد ختم وصفه للصيف بقوله:

ولا تقل إن جاء يوما أهلا ... فلعنة الله عليه فصلا

وثنَّى بوصف (الخريف)، وهو - كما يقول - بكل سوأة معروف، وهو كثير الآفات، قليل النبات، ويختم بقوله:

وهو على المعدود من ذنوبه ... خير من الصيف على عيوبه

ويأتي وصف (الشتاء) ثالثا، فيقول فيه: إذا أقبل جاءتك منه غمة غماء، وفيه رياح لا جناح على من يلعنها، ويأتي بمطر دائم، ويكثر فيه إنفاق الدراهم في شراء الملابس، وفيه تشتد الرِّعدة، ويؤثر النوم، ويستحلى الكسل.

---

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧٩ وما بعدها . طبعة التجارية.

وذكر ابن خلكان أن تنيس بناها تنيس بن نوح عليه السلام فسميت باسمه (وفيات الأعيان) ج ١ ص ٣٨٠.

أما (الربيع) فهو حسن؛ لبرده وحره مقدار، ونهارُه من أحسن النهار، وليله مستلطَفُ النسيم، وفيه تشدو الطيور، ولا تكف عن الترنم، وفيه للرياض منظر.

وقد أطنب فى وصف الربيع فى قصيدة أخرى، وينهى مزدوجته بقوله:

ولا تعــارضننى فى هذا العــمل فــإننى شــيخ الملاهى والغــزل

* * *

أما من المحدثين فلعل أبلغ ما جاء فى وصف الزمن ما كتبه أمير الشعراء أحمد شوقى فى كتابه: (أسواق الذهب).

فقد خص كلا من الأيام الثلاثة: (الأمس - اليوم - الغد) بأوصاف. فقال فى الأمس:

أمسِ ما أمسٍ؟ خطوة إلى الرَّمس، خرزةٌ هَوَتْ من السِّلك أغلى من خرزات الملك، صحيفة طُويت والصحف قلائل، من كتاب العمر الزائل، ثُلمةٌ فى الجدار، وَهَتْ لها الدار، وأنتَ عير دار، جزءٌ من عمرك حضرت وفاته، وقبْرتَ بيديك رفاتَه، لم ترق عليه عبرة ولم تشيّعه بالتفاتة، وهو القاعدة التى يبنى عليها العمر، والحَبّ الذى ينبت عليه الشجر، ويخرج منه الثمر، وهو الخبر والأثر، والكتب والسير، والأُسى والعبر، وهو أبو يومك والولد سِرّ أبيه، وجدّ غدك فاجعله النبيل فى الجدود النبيه.

وقد وُفِّق شوقى كل التوفيق فى هذا الوصف، ولكنه لم يقل شيئا ذا بال فى وصف (اليوم) إذ صرف همّه إلى وصف الإنسان فى يومه، وأول ذلك أنه أعاد معنىً ذكره فى وصف (الأمس)، ذلك قوله: (طلعت الشمسُ، ونُفِضت الخمس، من تراب أمس، وقد هان عليهم اليوم الراحل، كما هان على المسافر مطوى المراحل فلا لعبْرة أراقوا، ولا على العبرة أفاقوا) وعلّل ذلك بقوله: (شغلتهم دنياهم، وألهاهم هواهم)، ثم زاد أن الله سبحانه - جعل الأمس أحاديث ومواريث، وجعل اليوم مجال الناهض الناهز، وجعل غدا يوم العاجز، ثم ينصح شوقى (ابن الأيام) ألا يتعلق بالأمس، ولا يُرجئ عمل اليوم

إلى الغد، بل عليه أن يعمل في يومه ما أمكن العمل، ويتمتع به ما تسنّى التمتع، فما يعلم ما قدامه من عوائق، ولا ما دونه من بوائق، وما يدرى: أأعوام حياته أم دقائق؟.

وواضح أن كلامه هذا كله يختلف عما قاله في وصف (الأمس) فهو في ذاك وصف اليوم نفسه، وهنا وصف أصحاب اليوم.

ثم قصر أيضا في وصف الغد فهو - كما يقول - : (غيوب محجوبة، وحجُبُ مضروبة، وأقدار مكتوبة، وأعمار موهوبة أو منهوبة، وأرزاق مجلوبة أو مسلوبة، بريد الملك القهار، موعده حواشي الأسْحار، أو غرة النهار، حملت الفجاءات نجائبُه، واشتملت على المستجدات حقائبه).

(هو الشخص الثالث، في رواية الأيام والحوادث، والخلَف من صاحبَيْه والوارث، وهو معقد الآمال، وموعد استئناف الأعمال، تنام الأنفس، وفي إيمانها منه شك، وفي أيمانها منه صك).

ثم ينصح (ابن الأيام)، فيقول: (فاعمل له ما استطعت، وانتظره أتى أم لم يأت، وقل: سبحان الذى أتى به، والذى هو قادر على طى كتابه، يوم يأتيه أمره فلا يبرز من حجابه).

وفي كثير من الشعر أوصاف للزمن، فهو يشوب حلو بمُرّ، في قول الشاعر أبي الحسن على بن محمد الخوارزمي، المعروف بالبديهي:

مرَّ من كنت أصطفيه وللدهـــ ـــر صروف تشوب حلوا بمر

والدهر ملول لا يصبر على حالة في قول محمود الوراق:

الدهر لا يَبْقى على حالة لكنه يقبل أو يدبرْ

فإن تلقاكَ بمكروهه فاصبر فإن الدهر لا يصبرْ

وهو يمل من الحرمان، كما يمل من الإعطاء في قول تميم بن المعز:

وعَلمتُ أخلاق الزمان فلم أضقْ ذرْعًا بأيامي وغدر زماني

وكما يَمَلُّ الدهر من إعطائه فكذا ملالته من الحرمان

وهو يفعل عن غير قصد، ولا يدوم فيه بؤس حتى ولو سأل البائس دوامه في قول شمس الدين بن أبي رَجْلة:

والدهر كالطيف بُؤْساه وأنعُمه　　عن غير قصدٍ فلا تحمَد ولا تَلُم

لاتسأل الدهرفي البأساء يكشفها　　فلو سألت دوام البؤس لم يدم

وهو عند أبي العلاء المعري كالشاعر المُقْوِي، يتصرف في القوافي رفعا وخفضا كما يشاء:

الدهر كالشاعر المُقوى ونحن به　　مثل الفواصل مخفوض ومرفوع

ما سرَّ يوما بشئ من محاسنه　　إلا وذاك بسوء الفعل مشفوع

وقريب من قول ابن أبي رَجْلة قول بعض أهل العلم:

أتحسب أن البؤس للحر دائم　　ولو دام شئ عدَّه الناس في العجبْ

ولو طلب الإنسان من صْرف دهره　　دوام الذى يخشى لأعياه ما طلبْ

وقريب منهما قول إبراهيم بن إسحاق الموصلي:

لو أن ما أنتمُ فيه يدوم لكم　　ظننتُ ما أنا فيه دائما أبدا

لكنْ رأيت الليالي غير تاركة　　ما سرّ من حادث أوساء مطردا

فقد سكنت إلى أني وأنكم　　سنستجد خلاف الحالتين غدا

والزمان زمانة عند أبي الحسن محمد بن محمد البصري المعروف بابن لنكك:

يا زمانًا ألْبَس الأحـ　　ـرار ذُلاً ومهانةْ

لستَ عندى بزمان　　إنما أنت زمانة

وذلك لأنه – كما يقول – :

زمان قد تفرغ للفُضول　　وسوّد كل ذى حُمق جهول

فإن أحببتم فيه ارتفاعا　　فكونوا جاهلين بلا عقول

وقد أكثر الشعراء من إتهام الدهر بأنه يعطى الجهلاء، ويحرم العقلاء، ولا يكاد يخلو شعر شاعر من هذا الاتهام للزمن .

ومن ذلك قول عبد الرحيم العباسى، صاحب (معاهد التنصيص فى شواهد التلخيص) :

أرى الدهر يكرم جهاله ... وأعظم قدرا به الجاهل
وأحسب حظى به ناقصا ... أيحسبنى أننى فاضل؟!

وللرياش البغدادى فى هذا المعنى :

إنى رأيت الدهر فى صرفه ... يمنح حظ العاقل الجاهلا
وما أرانى نائلا ثروة ... أظنه يحسبنى عاقلا

وللباخرزى :

ساءنى الدهر لأنى عاقل ... ليت أنى مثل غيرى أبْلَهَ

وقد أجاد القائل فى هذا المعنى :

وما لى إلى دهر ذنوبٌ أعدُّها ... سوى تهمةِ الأعداء لى بالفضائل
وإنى منها تبتُ توبة نادم ... مقر بأنى اليوم أجهل جاهل

والدهر عند البارودى كالبحر :

والدهر كالبحر لا ينفكُّ ذاكدر ... وإنما صفوه بين الورى لُمَعُ

وعند الشيخ إبراهيم اليازجى مفازة يضل بها الخبير :

لعمرك ما الأيام إلا مفازة ... يضل بها الخِرِّيتُ والصبح يبسمُ
تريد بها نجدا فتأتى تهامة ... وآخر يأتى نجدَ من حيث يُتهِمُ

والليالى – عند المتنبى – لها سلطان غالب، يتحكم فى أقدار الناس :

فلا تنلْك الليالى إنَّ أيديَها ... إذا ضربْن كسرْنَ النّبع بالغرَب (١)

---

(١) النبع : شجر صلب ينبت فى رؤوس الجبال . الغرَب : شجر رخو ينبت على الأنهار .

ولا يُعِنَّ عــدوا أنت قــاهرُه ... فإنهن يَصِدْن الصقر بالخرَب [1]

وربما احتسب الإنسانُ غايَتها ... وفاجأته بأمر غير مُحتسِب

ومـا قـضى أحـدٌ منهـا لُبـانَتَـه ... ولا انتـــهى أرَبٌ إلا إلى أرب

والدهر واعظ أى واعظ، وقد صدق ابن دُرَيْد : –

مَن لم يعظه الدهرُ لمْ ينفعه ما ... راح به الواعظ يومًا أو غـدا

مَن لمْ يُفـده عِـبَـراً أيامـه ... كـان العـمى أولى به من الهـدى

* * *

(١) الخرب – بفتحتين – ذكر الحُبارى. يضرب به المثل فى الجبن.

شكوى الزمان

قال المفضَّل الضَّبِّى إن أول شاعر ذم الدنيا هو الممّزق العبدى.

وقال ابن قتيبة فى عيون الأخبار (٢ - ٣٠٨): قال الأصمعى: أول شعر قيل فى ذم الدنيا قول ابن خَذّاق.

وقال ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء)؛ والبكرى فى (سِمْط اللآلئ) عن أبى عمرو بن العلاء: أن ليزيد بن خَذَاق أولَ شعر قيل فى ذم الدنيا.

وقال أبو عبيدة فيما نقله ابن الأنبارى عن الأبيات الآتية: انها ليزيد بن خذاق، قال: (وهو الصحيح، ويزيد جاهلى قديم).

والأبيات هى:

هل للفتى من بنات الدهر من واق ... أم هل له من حِمام الموت من راقِ

هوِّن عليك ولا تولَع بإشفاق ... فإنما مالُنا للوارث الباقى

كأننى قد رمانى الدهرُ عن عُرُض ... بنا فذات بلا ريشٍ وأفواق [١]

وللحارث بن مضاض الجرهمى، وقد عُمِّر:

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروفُ الليالى والجدودُ العواثر

وقد نسبهما العباسىُّ فى (معاهد التنصيص) [٢] لخَرقَة بنت تبَّع، وقال محققه فى الهامش إنهما لُمضاض بن عمرو الجرهَمى.

ومما يروى عن خرقة هذه: إننا اشترينا كرَّ بُرٍّ بمصر بكردر.

ولعدى بن زيد العِبادى:

ربّ ركب قد أناخوا عندنا ... يشربون الخمر بالماء الزلالْ

---

(١) الفوق: مجرى الوتر من السهم، وفى عيون الأخبار، بيتان غير هذه الثلاثة، وليس فيه البيت الأخير.

(٢) ج ٤ ص ١٥٥.

عـمَـروا دهرهم بعـيش ناعم　　آمنى دهرهم غـيـر عِـجـالْ
ثم أضَحْوا عصف الدهرُ بهم　　وكـذاك الدهر يودى بالرجـال
وكـذاك الدهر يرمى بالفـتى　　فى طِلاب العيش حالا بعد حال

قال أبو زيد: دخلنا على أبى الدُّقَيش، وهو شاكٍ، فقلنا: كيف تجدك؟ قال: أجدنى أجد مالا أشتهى، وأشتهى مالا أجد، ولقد أصبحت فى شرّ زمان، وشرّ ناس. مَن جاد لم يَجدْ، ومن وجَد لم يجُد.

*　*　*

وللجاحظ رسالة إلى بعض إخوانه، يشكو فيها الزمان [1]. يقول فيها:

كتبت إليك وحالى حال من كثفت غمومه، وأشكلت عليه أموره، واشتد عليه حال دهره،وقلّ عنده من يثق بوفائه؛ لاستحالة زماننا، وفساد أيامنا، ودولة أنذالنا.

ثم أطنب فى أن الصادق المؤثر للحق جزاؤه الحرمان، وأن ضعيف اليقين يستكمل سروره، وتعتدل أموره.

ثم يقول: وهذه حجتُنا على من زعم أن الجهل يخفض، وأن النَّوْلَ يُردى، وأن الكذب يضر، وأن الحلف يزرى.

وبعد ذلك يقول: ثم نظرنا فى الوفاء والأمانة والنبل والبلاغة، وحسن المذهب، وكمال المروءة ... والفائق فى سَعة علمه، والحاكم على نفسه، والغالب لهواه فوجدنا فلان بن فلان ثم وجدنا الزمان لم ينْصفه من حقه، ولا قام له بوظائف فرضه، ووجدنا فضائله القائمه له قاعدة به، فهذا دليل أن الطَّلاح أجدى من الصلاح، وأن الفضل قد مضى زمانُه، وعفت آثارُه، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده، ووجدنا الفضل يشقى به قرينه، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينُه، ووجدنا الشاعر ناطقا على الزمان، ومعربا عن الأيام حين يقول:

---

(١) أوردها ابن عبد ربه فى (العقد الفريد ج ١ ص ١٧٢ ـ ط العريان).

تحامقْ مع الحمقى إذا ما لقيتهم	ولا تَلقهمْ بالجهل فعلَ أخى الجهل
وخلِّط إذ لاقيتَ يوما مخلِّطا	يخلِّط فى قول صحيح وفى هزل
فإنى رأيت المرء يشقى بعقله	كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

قلت: وتالله، لكأن الجاحظ يعبر عن زمننا هذا، ولكنى أقول كما قال أبو حيان التوحيدى: إلا أنى أرجو ألا تكون القضية عامة.

وإذا كان الجاحظ شكا من قلة الوفاء فى الناس، ومن أن الزمن يعطى الأحمق، ويحرم العاقل، فإن الكاتب المصرى القديم يشكو شكوى أخرى، مما يؤكد أنه: (لا جديد تحت الشمس) فقد (وجُد منقوشا على حجرَ من الآثار المصرية القديمة يرجع عهده إلى أربعة آلاف سنة هذه العبارة: ينحدر العالم هذه الأيام إلى مهاوى الانحطاط والاضمحلال، فمن علامات الساعة أننا صرنا إلى زمن يتمرد فيه الأبناء على الآباء، ولا يتورع كل من هبّ ودب عن التطلع إلى التأليف والتصنيف، إن العالم يدنو حثيثا من نهايته المحتومة[1]).

وعجيب أن يتنبه كاتب فى ذاك الزمن السحيق إلى مثل ما ذكره هذا الكاتب المصرى، وإذا كان قد شكا من تمرد الأبناء على الآباء فقد صرنا إلى زمن أصبح فيه هذا التمرد أمرا طبيعيا، أما فى زمننا هذا، فمن الأبناء من يضرب أباه وأمه، ومنهم من يقتلهما.

وأعجب ما فى شكوى هذا المصرى القديم شكواه من جرأة الجهال على التأليف والتصنيف وكأنه إن كانت الترجمة حرفية يفرق بين من يؤلف ومن يصنف، وياليته عاش إلى زماننا هذا ليرى أن كثيرا ممن يؤلفون أو يصنفون لا يملكون إلا قلما أرعن، وقرشا حائرا بائرا، كما يعرفون الطريق إلى المطبعة، على أن كلا منهم يتمتع بوجه وقاح، وغرور كاذب.

* * *

---

(١) نقلا عن صحيفة الأهرام القاهرية فى عددها الصادر بتاريخ ١٧/ ١١/ ١٩٤٨م.

وإذا كان الواضح من شكوى الجاحظ، وشكوى الكاتب المصرى القديم أن الزمان كان صالحا ثم فسد فإن البديع الهمذانى يخالفهما، ويخالف أمثالهما ممن لفَّ لِفَهما، وسار فى طريقهما، فيؤكد أن الزمن لم يكن صالحًا فى يوم من الأيام، منذ عهد آدم عليه السلام إلى الزمن الذى عاش فيه البديع، فقد كتب رسالة إلى (أحمد بن فارس) يرد على رسالة منه يذمُّ فيها ابن فارس الزمان فيقول البديع:

(نعم. إنه الحمأ المسنون، وإن ظنت الظنون، والناس ينسبون إلى آدم وإن كان العهد قد تقادم، وارتبكت الأضداد، واختلط الميلاد.

والشيخ الإمام يقول: فسد الزمان، أفلا يقول متى كان صالحا؟!!!

أفى الدولة العباسية فقد رأينا آخرها، وسمعنا أولها؟ أم المدة المروانية وفى أخبارها لا تكسع الشول بأغبارها؟ أم السنين الحربية، والرمح يركز فى الكلى، والسيف يغمد فى الطُلى، ومبيت حُجْرِ فى الفلا، والحرَّتان وكربلا؟. أم البيعة الهاشمية، وعلىٌّ يقول: ليت العشرة منكم برأس من بنى فراس؟ أم الأيام الأموية، والنفير إلى الحجاز، والعيون إلى الأعجاز؟ أم الأيام العدوية، وصاحبها يقول: وهل بعد البزول إلا النزول؟ أم الخلافة التَيْمية، وصاحبها يقول: طوبى لمن مات فى نأنأة الإسلام؟ أم على عهد الرسول، ويوم الفتح، وقد قيل: اسكتى يا فلانة فقد ذهبت الأمانة؟. أم فى الجاهلية، ولبيد يقول:

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم وبقيتُ فى خلْف كجلد الأجرب

أم قبل ذلك، وعاد يقول:

بلادُ بها كنَّا وكنا نحبها إذ الناس ناس والزمان زمانْ

أم قبل ذلك، ورُوِى عن آدم عليه السلام:

تغيَّرت البلادُ ومَنْ عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح

أم قبل ذلك، وقد قالت الملائكة: (أتجعل فيها من يُفسِد فيها ويَسفكَ الدِّماء)؟

ومـا فـسـد النـاس ولكن اطرد القـيـاس، ولا أظلمت الأيام، ولكن امـتـد الظلام.

وعلى ذكـر (لبـيـد) روى هشـام بن عـروة بن الزبيـر عن أبيـه عـروة قـال: كانت عائشة - رضى الله عنها تنشد قول لبيد ثم تقول: فكيف لو رأى زمامننا هذا؟! وكان عروة ينشده، ويقول: رحم الله خالتى عائشة فكيف لو رأت زماننا هذا؟ قال هشام: وأقول: رحم الله عائشة، ورحم الله أبى فكيف لو رأوا زماننا هذا؟!!

قلت: ولعل كثيرين ممن أنشدوا هذا البيت ووقفوا على ما رواه هشام عن أبيه وجدته، لعل كل من أنشده قال فى شأن من كانوا قبله: فكيف لو رأوْا زماننا هذا؟

وفى معنى رسالة البديع يقول أبو العلاء:

ونحن فى عـالَمٍ صِيـغتْ أوائلهُ　　على الفساد فَفَىٌّ قولُنا: فسدوا

ويقول:

مضى الزمان ونفس الحر مولعة　　بالشـر من قـبل هابيل وقـابيل

لو غُرْبِلَ الناس كيما يَعْدَمُوا سَقَطا　　لما تحـصل شئ فى الغـرابيل

والمتنبى يقف بين إسـاءة الدهر وإحـسـانه، وإن جـعل إسـاءته هى الأصل والأكثر، والإنسان عونُ الدهر على إساءته إلى الناس، يقول:

صـحِب الناس قـبلَنا ذا الزمـانا　　وعناهمْ من شـأنه مـا عنانا

وتولوا بغـصـَّـة كلهم منـ　　ـه وإن سرَّ بعضَهم أحيـانا

ربَّمـا تُحَـسنُ الصنيعَ ليـ　　ـاليه ولكن تكدِّر الإحسانا

كلـمـا ركَّب الزمـان قناة　　ركب المرء فى القناة سنانا

ويحطب ابن حزم الظاهرى فى حبل المتنبى إذْ يقول:

هل الدهر إلا ما عـرفنا وأدركنا　　فـجـائعُـه تبـقى ولذاتُه تفنى

إذا أمكنتَ فـيـه مـسَّرة سـاعـةٍ　　تولت كمرّ الطيف واستخلفتُ حزنا

وقريب منهما قول الآخر:

بلوتُ الليـــالى فلم يِّتـــزن ... بأدنى الإســـاءة إحـــسانُهـــا
فـلا تحـمــدنْهـا على وصلهـا ... فـفى نَفَس الوصل هجـرانُهـا

ثم يلقى أبو العلاء بآبدته، ليس للزمان خير، وإنما خيره وعود:

عرفتُ سجايا الدهر أما شرورُهْ ... فنقْـدُ، وأمـا خـيـرُه فـوعـود
إذا كـانت الدنيا كـذاك فخلِّهـا ... ولو أن كلَّ الطالعـات سـعـود

ولا أمل - عنده - فى تحقيق هذه الوعود، يقول فى رثاء الفقيه الحنفى:

يا دهرُ يا منْجِـــز إيعـــاده ... ومُـخلِف المأمـول من وعـده
أىٌّ جـــــديـدٍ لـك لـمْ تُبْـلِه ... وأىُّ أقـــــرانـك لـم تُـرْدِه

حتى لو كان فى الزمان خير فهو - لا محالة - مفارق، فليرض كل إنسان بما عنده:

أرى كل خير فى الزمان مفارقا ... فلا تأسفَنْ فيها لقلة خيركا
ودنيـاك سـارت بالأنام مُـغـذَّةً ... فلا فرق فِيها بيْن سَيْرى وسيْرِكا
أصاحِ أتدرى كيف بعدك حالُها ... أجلْ مثلما شاهدتَه بعد غيرِكا

* * *

الدفاع عن الزمان

إذا كان جُلُّ الكتاب والشعراء ، بل جل الخاصة والعامة يصفون الزمان بكل قسوة ، ولا يروْن أنه يأتى بخير ، فإن من كل هؤلاء من يتوخى الإنصاف والاعتدال فلا يرى للزمان فعلا فى كل ما يشكو منه الشاكون ، ولا يحمِّلونه ذنبا هو منه برئ .

بعضهم يرجع إلي الحقيقة الكبرى التى تضمنها قول الله تعالى : **﴿ وَلا تَدْعُ من دُون اللَّه مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإن فَعَلْتَ فَإنَّكَ إذًا مّنَ الظَّالمينَ * وَإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فَلا كَاشفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وَإن يُردْكَ بخَيْرٍ فَلا رَادَّ لفَضْله يُصيبُ به مَن يَشَاءُ منْ عبَاده وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ ﴾** [يونس : ١٠٦ ، ١٠٧] .

وبعضهم يلقى التبعة كلها على بنى الإنسان ، فمنهم يأتى الشر ، ولا دخل للزمن فى ذلك .

ومن الفريق الأول أبو العلاء المعرى فى أقواله :

وسهام دهرك لا تزال مصيبةً صُرِفَتْ بإذن الله عن أخطائها

وقوله :

إذا قيل غال الدهر شيئًا فإنما يُراد إله الدهر والدهر خادم

وقوله :

أمور دهرك سطرٌ خطَّه قدَرٌ وحبُّها في السجايا أول السَّطَر

وكذلك الذى يقول :

يا لائم الدهر وأفعاله مشتغلا يُزْرى على دهره

والدهر مأمور له آمرٌ ينصرف الدهر على أمره

ولأبى النصر محمد بن عبد الجبار العُتْبى [١] فصل فى الإنكار على من يذم الدهر ، يقول فيه :

---

(١) هو – كما يقول الثعالبى فى اليتيمة – لمحاسن الأدب ، وبدائع النثر ، ولطائف النظم ، ودقائق العلم كالينبوع للماء ، والزند للنار ، يرجع منها إلى أصل كريم ، وخلق عظيم ، استوطن نيسابور ، وناب بخراسان ، وله كتاب (لطائف الكتاب) وغيره من المؤلفات .

عـتـبُك على الدهر داعٍ إلي العـتب عليك ، واسـتـبطاؤك إياه صـارف عنان اللوم إليك ، فإن الدهر سهم من سهام الله ، منزُعه من مقابض أحكامه ، ومطلعه من جانب أقلامه ، والوقيعة فيه تمُّرس بحكم خالقه وباريه ، ومجارى الأشياء على قدر طباعها ، وبحسب ما فى قواها وأوضاعها .

ومن ذا يلوم الأراقم على النهس بالأنياب ، والعقارب على اللذع بالأذناب؟ وأنَّى لها أن تُذَمّ ، وقد أُشربتْ خلقتُها السّمّ؟!

وحكم الله فى كل حـال مُطاع ، وبأمـره رِضًـا واقـتناع . فـأعْفِ الزمـان عن قـوارص لسـانك ، واضرب عليـهـا حجاب الحرص بأسنانك ، واذكر قول النبى – ﷺ – : « لا تسبُّوا الدهر فإن الله هو الدهر » .

وعليك بالتسليـم لحكم العلى العظيم ، فذاك أحمد عُقْبي ، وأرشد دينا ودنيا [1] .

وقريب من هذه المعانى قول أبى العباس المأمونى :

لا تسـخطن علي دهرٍ لحادثةٍ فكـل حـادثة يأتى بـهـا القـدر
وكنْ بربك فى الأحوال ذا ثقة بأنه دافـع الآفات لا الحذر [2]

* * *

ومن الفريق الثانى أبو ميـاس الشاعـر . حدث أبو جعفـر الشيبانى ، قال : أتانا يوما أبو ميَّاس الشاعر ونحن فى جماعة ، فقال : فيم أنتم؟ وما تتذاكرون ؟ قلنا : نذكر الزمان وفساده . قال : كلا . إنما الزمان وِعاء ، وما ألقى فيه من خير أو شر كان على حاله ، ثم أنشأ يقول :

أرى حُـللا تُصان على أناس وأخـلاقا تُذال فمـا تصـان
يـقـولون الزمـانُ به فـسـاد وهم فسدوا وما فسد الزمان

(١) يتيمة الدهر : جـ ٤ . ص ٤٠١ .
(٢) السابق ٤ – ٤٤٨ .

وفى مثل هذا يقول ابن حماد البصرى :

يا ليتنى مُـنكرٌ من كنتُ أعـرفه فلست أخشى إذًا من ليس يعرفنى
لا أشـتكى زمنـى هـذا فأظـلمه وإنمـا أشـتكى من أهـل ذا الزمـن
وقد سـمعتُ أفانين الحـديث فهل سـمعت قط بحرٍّ غير مُمتحن [١]

ويقول أبو العلاء :

ليـشْـغَلْكَ ما أصبـحت مرتقبا له عن العـيـب يبـدا والخـليل يؤنب
فـمـا أذنب الدهـر الذى أنت لائـم ولكـن بنـوا حـواء جـاروا فأذنبـوا
نقمت على الدنيا ولا ذنب أسلفت إليك ، فـأنـت الظـالم المتـكـذب
وهبْـهـا فـتـاة هل عليـها جـنـاية بمَن هـو صـبٌّ فى هـواها معذَّب

ويقول ابن لَنْكَك [٢] ، وهو شعر مشهور :

يعيب الناس كلُّهُم الزمانا وما لزمـاننا عـيبٌ سـوانا
نعيب زمـاننا والعيب فينا ولو نطق الزمان إذًا هجـانا
ذئـاب كلـنا فى زىٍّ ناسٍ ويأكل بعضـنا بعضا عيانا

وفى ظلم الناس بعضـهم بعضا يقول أبو سليمان الخطابى ، وإن لم يجر للزمان ذكر ، ولكن الشئ يذكر بالشئ . يقول الخطابى – رحمه الله تعالى – :

شـرُّ السـباع العوادى دونه وزَرٌ والنـاس شـرُّهمُ مـا دونه وزَرِ
كم معشر سلموا لم يؤذهم سبُعٌ وما نرى بشـرا لـم يؤذه بشـر [*]

---

(١) السابق : ٣ – ٤١٧ .

(٢) أبو الحسن محمد بن محمد ، قال عنه الثعالبى : (فرد البصرة ، وصدر أدبائها ، وبدر ظرفائها ، كانت حرفه الأدب تمسّه وتجمّه ، ومحنة الفضل تدركه فتخدشه ، ونفسه ترفعه ، ودهره بضعه ، وأكثر شعره ملح وطرائف ، وجله في شكوى الزمان وأهله ، وهجاء شعراء أهل عصره) وكان عَصْرِىَّ المتنبى .

(*) أبو سليمان حمَد بن محمد بن إبراهيم البُستي ، كان فقيها محدثا أديبا . له تصانيف بديعة ، فى الحديث ، وفى إعجاز القرآن . قيل : إنه كان يشبه في زمانه بأبى عبيد القاسم بن سلام علما وأدبا وزهدا وورعا توفي ٣٨٨ هـ .

ومن برأ الزمان من المحدثين إلياس فرحات الشاعر المهجرى :

نشكو أذى الدهر شكوى لا أساس لها   فالدهر لم يقترفْ ذنبًا ولم يُجرِ
لا يُغلق البشرُ الأبوابَ إنْ رقدوا   خوفا من الدهر بل خوفا من البشر

والبارودى ولكنه يذهب مذهبا آخر ، فحياة الإنسان من صنعه ، إن ساء عملُه لم تصلح حياته ، ولا ذنب للدهر ، فلم يسرف فى ذمها :

إذا ساء صنع المرء ساءت حياته   فما لصروف الدهر بوسعها ذمًّا ؟!!

* * *

وفريق ثالث لا يبرئ الزمان من الإساءة إلى بنى الإنسان ، ولكنه ينْصفه أنه مع إساءته يحسن ، بل ربما زاد إحسانه على إساءته .

يقول البحترى :

ننسى أيادى الزمان فينا فما   نذكر من دهرنا سوى نُوَبهْ

وقد كتب البهاء زهير لبعض أصدقائه وقد غرقتْ سفينته :

لا تعتب الدهر فى حال رماك بهِ   إنْ استردَّ فقدْما طالما وهبا
حاسب زمانك فى حاكىْ تصرفه   تجدْه أعطاك أضعافَ الذى سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة   فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا
ورأس مالك الدهر وهى الرُّوحَ قد سلمتْ   لا تأسفنَّ لشئ بعدها ذهبا

* * *

لم يشفع للزمان مثل هذا الذى يقوله البحترى ، حتى عند البحترى نفسه، والقضية التى شغلت الكتاب والشعراء منذ القديم بصفة خاصة أنهم يُبدئون ويُعيدون في ظاهرة يرونها ظاهرة ، ويكادون يعتقدون أنها القاعدة وغيرها الاستثناء ، ذلك أنهم يؤكدون فى كثير من أقوالهم أن الزمان – دائما – ضد الأكفاء ، صديق المتخلِّفين ، وأنه يمنح الجاهل حظ العاقل .

وقد ذكرت شيئا من ذلك فى فصل سبق ، وأضيف هنا بعض أقوال أخرى لهم ، ومن قديم قال الحكيم الجاهلى : ربَّ حُوَّلٍ مُكْدٍ ، وعاجز مثر .

ويصرح المتنبى بهذا المعنى :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من الفطِن

ويفصِّل أبو إسحاق الصابى :

إذا جمعتْ بين امرأين صناعةٌ   فأحببت أن تدرى الذى هو أحذق

فلا تتفقد منهما غير ما جرى   به لهما الأرزاق حين تفرق

فحيث يكون الجهل فالرزق واسع   وحيث يكون العلم فالرزق ضيق

ومثله قول الآخر :

زمان تحيرت أمره   كثير التعدِّى على حره

فللوغد ما شئت من نفعه   وللحر ما شئت من ضره

وأعجب ما فى تصاريفه   صيال البعوض على صغره

حتى الإمام الشافعى – رضي الله عنه – يحطب فى حبال هؤلاء الشعراء :

لو أن بالحيل الغنى لوجدتنى   بنجوم أفلاك السماء تعلّقى

لكن من رزق الحجا حرم الغنى   ضدان مفترقان أى تفرّق

ومن الدليل على القضاء وكونه   بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ويؤكد هذا المعنى أبو تمام فى قوله :

ينال الفتى من دهره وهو جاهل   ويكدى الفتى من دهره وهو عالم

ولو كانت الأَرزاق تجرى على الحجا   إذاً هلكت من جهلهن البهائم

ويقصر أبو العلاء الأمر على الحظ :

لا تطلبن بآلة لك حاجة   قلم البليغ بغير حظ مغْزَل

سكن السما كان السماء كلاهما   هذا له رمح وهذا أعزل

ويبالغ الشيخ أحمد الزين ، الشاعر المصرى المشهور فيرمى السادة وأصحاب الأمور بأنهم لا يقدمون إلا المرائين ، ولا يرفعون إلا المنافقين :

دع الحديث عن القسطاس في بلد	ما ســـوّدت بينـــها إلا مـــرائيـــها
ســـوق النفاق بهم شتّى بضـائعها	تُزْجَى لمن يشـتري إفكا وتمـويها
أرخصـتُمُ غـالي الأخلاق في بلد	لم تعـــل قيـمـتـها إلا بغـاليـها
أغلـتُـــم سبل الأرزاق لم تدعـوا	لفاضل الخلْق ســعيا في نواحيـــها

* * *

وصيحة الشيخ الزين [1] هذه يشبه أن تكون صياغة أخرى لما سجَّله ابن خلدون في هذه الظاهرة :

وابن خلدون – كعادته – يعالج قضايا المجتمع بنظرات فاحصة وواقعية واعية، وفكر حصيف .

يرى أن السعادة والكسب إنما يحصلان – غالبا – لأهل الخضوع والتملّق ، وأن الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم يصيرون إلي الفقر والخصاصة ، وأن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب .

ويعلل لكل ذلك ، فيذكر أن سبب الغنى هو الاتصال بذوى الجاه ، وأن هؤلاء يبذلون لمن تحت أيديهم ، ويكون بذله بيد عالية فيحتاج طالبه إلى خضوع وتملق . أما أصحاب الشَّمم فيقتصرون في الكسب على أعمالهم ، وأن الغرور يدفعهم إلى الاعتقاد بأن الناس محتاجون إليهم وإلى بضاعتهم من علم أو صناعة أو كتابة أو شعر . قال : (وكل محسن في صناعته يتوهم أن الناس محتاجون لما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك فيستنكف أحدهم عن الخضوع فيمقته الناس ، ولا يحصل له حظ من جانبهم) .

ثم يقول إن المشتغلين بأمر الدين يكونون في الغالب فقراء ، ويعلل ذلك بأن أهل الصناعة لا تضطر إليهم عامة الخلق فيقع الاستغناء عنهم في الأكثر .

---

(١) عالم من علماء الأزهر ، وشاعر بارع ، قال الشعر في كل فن ، وأجاد – بخاصة – في الشعر الاجتماعي ، ولد في إحدى قرى الوجه البحري سنة ١٨٩٧ – وتوفي في سنة ١٩٤٧ م ، وقد فقد بصره بعد مولده بثلاثة أيام ، وتقلب في بعض الوظائف ، وعمل فترة طويلة بدار الكتب المصرية ، وأدركته حرفة الأدب ، فعاني كثيرا من شظف العيش .

ويقول إنه اعتمد فيما ذهب إليه على ما اطلع عليه من حسابات الدواوين، وردَّ بذلك على بعض من اعترض عليه : (فوقفته عليه ، وعلم صحة ما قلته ، ورجع إليه ، وقضينا العجب من أسرار الله فى خلقه ، وحكمته فى عوالمه ، والله الخالق القادر ، لا رب سواه) [١] .

ولم يفت ابن خلدون أن ينبه إلى ما تجلبه أو تحرم منه الحظوظ . قال : (ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ ، وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة ، واقتطع له ذلك من الحظ ، وهذا معناه : ومن خلق لشئ يُسِّر له ، والله المقدر لارب سواه) [٢] .

ونحن نعرف – والأخبار في ذلك مستفيضة – أن أفراداً من كبار العلماء آثروا أن يعيشوا على الكفاف ، وأبوا أن يدخلوا أبواب السلاطين .

من ذلك – مثلا – الخليل بن أحمد ، وهو أحد أفراد الدنيا علما وفضلا كان يعيش فى خصٍّ ، والناس يأكلون العيش بعلمه .

كان للخليل راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة ، وكان والي فارس والأهواز ، فكتب إليه يستدعى حضوره ، فكتب الخليل جوابه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غنى غير أنى لست ذا مال
شحًّا بنفسى إني لا أرى أحدا ... يموت هزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدَر لا الضعف يَنْقُصُه ... ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال [٣]

ونعرف أن بعض العلماء الكبار لم يجد فى (بغداد) رغيفين فى كل يوم فهاجر منها ، وأن بعض الأدباء الكبار جاع حتى أكل ورق الشجر .

من الفريق الأول أبو محمد عبد الوهاب على بن نصر البغدادى ، الفقيه المالكى ، من ذرية مالك بن طوق .

---

(١) المقدمة : ص ٣٩٣ .
(٢) المقدمة : ص ٢٩٠ .
(٣) وفيات الأعيان : ٢ – ١٦ ، . تحقيق محيى الدين .

كان فقيها ، أديبا ، شاعرا ، وكان ثقة ، ولم يكن من المالكيين أحد أفقه منه .

قال ابن بسام فى (الذخيرة) : كان بقية الناس ، ولسان أصحاب القياس ، وقد وجَدتُ له شعرا ، معانيه أجلى من الصبح ، وألفاظه أحلى من الظفر بالنجح، ونَبَتْ به بغداد كعادة البلاد بذوى فضلها ، وعلي حكم الأيام بمحسنى أهلها ، فخلع أهلها ، وودَّع ماءها وظلها .

وحُدِّثْتُ أنه شيعه يوم فصّل عنها من أكابرها ، وأصحاب محابرها جملة موفورة ، وطوائف كثيرة ، وأنه قال لهم : لو وجدتُ بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنية .

ثم توجه إلى مصر فحمل لواءها ، وملأ أرضها وسماءها ، وتناهت إليه الغرائب ، وانثالت فى يديه الرغائب ، فمات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها ، وزعموا أنه قال وهو يتقلب ، ونَفَسُه يتصعدْ ويتصوب : لا إله إلا الله . إذا عشنا متنا ، ومن شعره :

بغداد دار لأهل المال طيبةٌ ... وللمفاليس دار الضَّنْك والضيق

ظللت حيران أمشى فى أزقتها ... كأننى مصحف في بيْت زِنديق

توفي عن ستين سنة : [٣٦٢ - ٤٢٢ هـ][1] .

ومن الفريق الثانى أبو حيان التوحيدى الذى يُعد قريبا للجاحظ أدبا وعلما، فها هو ذا يقول عن نفسه فى بعض رسائله : (إلي متى الكسيرة اليابسة ، والبُقيلة الزاوية ، والقميص المرقّع ؟ .. إلى متى التأدّم بالخبز والزيتون ؟ قد - والله - بُحَّ الحلق ، وتغير الخلق ... قد أذلنى السفر من بل إلى بلد ، وخذلنى الوقوف على باب باب ، ونَكرَنى العارفُ بى ، وتباعد عنى القريب منى)[2] .

وبجانب أولئك نجد علماء كبارا ، وأدباء أخيارا عاشوا فى رغَدٍ من العيش دون أن يأتوا أبواب ذوى الجاه ، ودون ملَقٍ أو نفاق .

---

(١) وفيان الأعيان جـ٣ . ص ٣٨٧ . وما بعدها .

(٢) الإمتاع والمؤانسة جـ٣ ص ٢٢٧ .

ولنأخذ مثلا أبا حنيفة النعمان صاحب المذهب ، فقد كان تاجرا صدوقا ، على جانب كبير من الثراء ، وقد دعاه الخليفة إلى تولى القضاء فأبى .

ولكن الأمور ترجع عند الكتاب والشعراء ، حتى المؤرخ ابن خلدون نظر إلى الحظ وإلى الزمن ، وإلي القرب إلي ذوى السلطان ، أو البعد عنهم .

والأمر أولا وأخيرا لله سبحانه وتعالى : ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** ﴾ [الزخرف : ٣٢] . ﴿ **أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الزمر : ٥٢]

نعم . خلق أسبابا ، وسخر لاكتساب المال طرقا ، ولكن ما شأن الزمن ، وما شأن الحظ ؟

ومن العجب أن القائلين لم يكتفوا بالإحالة على الزمن ، وعلي الحظ ، بل حكموا ، وقرروا ، وأكدوا أنهما – الزمن والحظ – عدوان للفضلاء من الناس ، صديقان للأراذل والضعفاء .

وقد سبق ، وسيجئ ما يؤكد ما ذهب إليه هؤلاء ، ونزيد – هنا – نماذج : جرى حوار بين الشاعر أبي الفرج الببغاء وبين الزمان نصحه الزمن فيه ألا يطلب منه أن يحقق له أمله بل يطلبه من سابور بن ازدشير ، فتقبل الشاعر نصح الزمن ، وعبّر عن ذلك بقوله :

وقد تقبلت هذا النصح من زمنى والنصحُ حتى من الأعداء مشكور[1]

فالزمن من الأعداء ، ومع تقبل الشاعر النصح منه .

ومن شعر ابن لنكك (أبي الحسن محمد بن محمد) ، وهو ممن أطالوا القول فى شكوى الزمان :

جـار الزمـان علينا فى تصـرفـه وأىُّ دهر على الأحـرار لم يجـر
عندى من الدهر مـا لو إن أيسـره يُلقى على الفلك الدوار لم يدر

(١) وفيات الأعيان : ٢ / ٩٩.

أما عن الحظ فقد سار ودار في كثير من أقوال الشعراء ، ومن ذلك هذه الأبيات :

وقائلةٍ ما بال مثلك خاملاً — أأنت ضعيف الرأى أم أنت عاجزُ
فقلت لها ذنبى إلى القوم أننى — لما لم يحوزوه من المجد حائز
وما فاتنى شئ سوى الحظ وحده — وأما المعالى فهى عندى غرائز (١)

ومن ذلك قول الآخر :

خطٌّ ولا حظٌّ وشِعْر ماله — سِعْر أأنثرُ فيهما أم أنظم ؟!!
كم جئت أرفع حالتى ويجرُّها — دهرٌ وأنصب والحوادث تجزم

* * *

(١) نسبها العماد الأصفهانى إلي أمية بن عبد العزيز الأندلسى الدانى ، وقال ابن خلكان (وفيات ١ / ٢٠) إنه لم يجدها فى ديوان أبي الصلت أمية هذا ، والبيتان الأولان جاءا في كتاب (الفلاكة والمفلوكون ١٣٨).

السِّـــنُّ

سبق أن نقلت ما نُسب للإمام الشافعى – رضى الله عنه – ليس من المروءة أن يُخبِر الرجل بسنه ، ونقلت تفسير هذه الكلمة من أن المخبر بسنه قد يُكذَّب .

لكن يقع أن يخبر الإنسان بسنه تحدثا بنعمة الله تعالى عليه ، أو ضيقا بتقدم العمر ، أو تبُّرما بالحياة ، أو لأى سبب من الأسباب التى تدعوه أحيانا أن يقول : أنا ابن أربعين أو خمسين أو جاوزت الستين أو المائة ، ولعله لا غبار على ذلك إذا كان الرجل معروفا بالصدق ، وكانت سنه مناسبة لحاله .

ولكن يقع أن يكذب الإنسان فيعطى سنه أقل أو أكثر مما هى .

ومن لطائف ما ذكر فى ذلك ما حدَّثوا عن العالم الصرفى المشهور معاذ بن مسلم الهراء .

فقد قالوا إن رجلا سأله : كم سنُّك ؟ فقال : ثلاث وستون سنة . ثم سَئل بعد ذلك بسنين ، فقال : ثلاث وستٌون سنة ، فقال له بعض كتابه : أنا معك منذ إحدى وعشرين سنة ، وكلما سألك أحدٌ : كم سنَّك ؟ تقول : ثلاث وستون . فقال : لو كنتَ معى إحدى وعشرين سنة أخرى ما قلت إلا هذا .

وقد عُمِّر معاذ هذا ، ولكن ظل واقفا عند الثلاث والستِّين .

قال فيه أبو السَّرِىّ سهل بن غالب :

إن معاذ بن مسلم رجل ... ليس لميقات عمره أمَدُ
قد شاب رأس الزمان واكتهل الدهـ ... ـر وأثواب عمره جُدُدُ
قل لمعاذ إذا مررت به ... قد ضجّ من طول عمرك الأبد
يا بكر حواءكم تعيش وكم ... تسحب ذيل الحياة يا لُبَد[1]
صحبت نوحا ورُضْتَ بغلة ذى ... القرنين شيخا لوُلدك الولد
فارحل ودعنا إن غايتك الموت ... وإن شدَّ ركنك الجلد

---

(١) قصة لُبَد مع لقمان مشهورة ، وممن ذكروها ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) حـ ٤ ص ٣٠ .

ولكن يبدو أنهم ظلموا هذا العالم ؛ فقد اعترف بسنه مرة حين مات بنوه جميعا إذْ يقول :

ما يرتجى فى العيش من قد طوى   من عمره الذاهب تسعينا

ورب قائل يقول : إنه حين اعترف بالتسعين كان قد جاوز المائتين ، ولكن يبعد أن يتكذب عالم في هذه الحال التى ينظر حوله فيرى بنيه جميعا طواهم الموت ، وأيًّا ما كان فقد تجاوز الثالثة والستين التى أصرَّ عليها زمنا .

ونمضي مع الناظرين للحياة مقرونة بالسِّن . يقول أبو العلاء :

وما بعد مرِّ الخمسَ عشرةَ من صبًا   ولا بعد مرِّ الأربعين صِبَاء

فهو يحدد الحياة الجادة ، والحياة الهازلة بهذا الزمن ما بين الخامسة عشرة والأربعين ، فعند الأولى تذهب الطفولة ، وعند الثانية يذهب الفتاء ، وسورةُ الشباب ، وتُودَّع اللذات ، ويبدأ زمن الوقار والجفاف .

ويقف شاعر آخر عند الثلاثين لا يجاوزها :

كل اللذاذات والتصابى   قبل الثلاثين تُستطاب

وكذلك وقف عندها ذو الرمة إذْ يقول :

أجِلْ عبرة كادت لعرفان منزل   لميَّةَ لو لم تسهل الدمع تذبح

على حين راهقت الثلاثين وارعوت   لداتى وكاد الحلم بالجهل يرجع

كادت العبرة تأخذ بحلقه أخذ الذابح لو لم تحدر الدمع فى هذه السن التى قارب فيها الثلاثين ، وكفّ أقرانه عن الفتوة والصِّبا ، وتركوا الغى ، وثابوا إلي الرشد .

ويؤيدهما الشاعر حبيب بن أحمد الأندلسى :

ثلاثون من عمرى تولت فما الذى   أؤَمِّل من بعد الثلاثين من عمرى

أطايب أيامى ذهبْن حميدة   سِراعا ولم أشْعُر بهن ولم أدر

كأن شبابى والمشيب يروعه   دجى ليلة قد راعها وضح الفجر(١)

ويبالغ – أعزك الله – ضائق بالحياة إذ يقول :

---

(١) يتيمة الدهر جـ١ ص ٣١١ .

يقولون : هل بعد الثلاثين ملعبٌ   فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب

وشعراء الثلاثين هؤلاء – فيما أرى – وبخاصة الأخير قد جهلوا أو تجاهلوا حقيقة الحياة ، فليس الإعراض عن المباح من الملاعب طبيعة فى الإنسان ، لا قبل الثلاثين ولا بعدها ، وليس اليأس من الحياة طبيعيا فى هذه السن ، إلا أن يكون يأسا خاصا اعترى هؤلاء الشعراء وأمثالهم ، وكيف يدعون إلي اليأس من الحياة في أيام زهرة الحياة ؟ واللعب المباح ضرورة من ضرورات العيش والبقاء .

قال أبو الدرداء – رضى الله عنه – : إنى لأستَجِمُّ نفسي بشئ من الباطل ليكون أقوي لها على الحق .

ويقول على بن أبي طالب – رضي الله عنه – : القلب إذا أُكره عَمِىَ .
ويقول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – : القلوب تملُّ كما تَمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة .

ويروى أنه أصيب في حكمة آل داود – عليه السلام – لا ينبغى للعاقل أن يخلىَ نفسه من واحدة من أربع :

من عدة لمعاد ، أو إصلاح لمعاش ، أو فكر يقف به على ما يصلحه مما يفسده ، أو لذة فى غير محرم يستعين بها على الحالات الثلاث (١) .

قلت : وهذه الرابعة هى المراد بالباطل الذى ذكره أبو الدرداء – رضى الله عنه – .

ويشير شوقى إلى بيت لبيد بن ربيعة فى الشكوى من طول الحياة : فيقول :

ومن صابر الدهر صبرى له   شكا فى الثلاثين شكوى لبيد

وبيت لبيد هو :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

وبعد هذا البيت يقول شوقى شاكيا :

ظمئت ومثلى برىٍّ أحـ   ـقُّ كأنى حينٌ ودهرى يزيد
تغابيت حتى صحبت الجهول   وداريت حتى صحبت الحسودْ

*   *   *

(١) الكامل للمبرد ٢/٣ .

الأربعـــون

وقد وردت في قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[الأحقاف: ١٥]

ووقف المفسرون عند معنى (الأشد) ودلالة (الأربعين) . فروى عن عطاء عن ابن عباس أنه أريد بالأشد ثماني عشرة سنة ، والأكثرون من المفسرين على أنه – أى الأشد – ثلاث وثلاثون سنة .

قال الزجاج : الأولى حمله على ثلاث وثلاثين سنة لأن هذا هو الوقت الذى يكمل فيه بدن الإنسان .

وقال فخر الدين الرازى عن الأربعين : (هذا هو السِّنُّ الذى يحصل فيه الكمال اللائق بالإنسان شرعا وطبا ؛ فإن فى هذا الوقت تسْكن أفعال القوى الطبيعية بعض السكون ، وتنتهى له أفعال القوى الحيوانية إلى غايتها ، وتبتدئ أفعال القوى النفسية بالقوة والكمال .

وإذا عرفت هذه المقدمة ظهر لك أن بلوغ الإنسان وقت الأشد شئ وبلوغه إلي الأربعين شئ آخر ؛ فإن بلوغه وقت الأشد عبارة عن الوصول إلي سنِّ النشوء والنماء ، وأن بلوغه إلى الأربعين عبارة عن الوصول إلي آخر مدة الشباب ، ومن ذلك الوقت تأخذ القوى الطبيعية والحيوانية في الانتقاص ، وتأخذا القوى العقيلة والنطقية فى الاستكمال) .

ثم يستدل على ذلك بهذه الآية إذْ يقول إنها : (تدل علي أن توجه الإنسان إلي عالم العبودية والاشتغال بطاعة الله تعالي إنما تحصل من هذا الوقت ، وهذا تصريح بأن القوة النفسية العقلية والنطقية إنما تبتدئ بالاستكمال من هذا

الوقت . فسبحان من أودع في هذا الكتاب الكريم هذه الأسرار الشريفة المقدسة) .

ولعلنا نلاحظ أن الرازى ذكر حصول الاشتغال بالطاعة فى سنّ الأربعين ، ثم ذكر أن القوى النفسية تبتدئ بالاستكمال من هذا الوقت ، والقول الثانى مسلم ، والقول الأول فيه نظر ؛ إذ كيف يبقى توجه الإنسان إلي عالم العبودية إلي سنّ الأربعين ؟ ، والرازى يورده بصيغة الحصر ، وأداته (إنما) .

إن توجه الإنسان المسلم إلي العبودية قد يستولي عليه في الشباب المبكر ، وهذا أمر يقره التكليف الشرعى ، والنصوص الكثيرة ، والواقع أيضاً .

وهل بعد قوله - ﷺ - فى السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : (وشاب نشأ في عبادة ربه) ، (إن توجه الإنسان إلي عالم العبودية ، والاشتغال بطاعة الله تعالى إنما تحصل من هذا الوقت) يريد سنّ الأربعين)؟![1]

وأورد ابن خلكان قول الخليل بن أحمد : (أكمل ما يكون الإنسان عقلا وذهنا إذا بلغ أربعين سنة ، وهى السنّ التى بعث الله تعالى فيها محمدا -ﷺ- ، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثا وستين سنة ، وهي السّنّ التى قبض فيها رسول الله - ﷺ - . وأصفى ما يكون ذهن الإنسان فى وقت السحر)[2] .

وقد وقف كثير من الشعراء عند سنّ الأربعين .

قال أبو على القالى فى أماليه[3] : (وحدثنا أبو بكر بن الأنبارى - رحمه الله - قال : حدثنا عبد الله بن خلف ، قال : حدّثنا محمد بن أبى السرىّ ، قال : حدثنا الهيثم بن عدى قال : كنا نقول بالكوفة : إنه من لم يرو هذه الأبيات فلا مروءة له ، وهى لأيمن بن خُريم بن فاتك الأسدى .

ثم ذكر القالى سبعة أبيات ، منها هذان البيتان :

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٨ - ١٦ - وما بعدها . ط . دار التراث ببيروت .

(٢) وفيات الأعيان ٢ - ١٦ - تحقيق محيى الدين عبد الحميد . (٣) ١ - ٧٨ .

إذا المرء وفَّى الأربعين ولم يكن　　له دون ما يأتى حياء ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذى أتى　　وإن جرَّ أسباب الحياة له الدهر [1]

ومشهورة أبيات سُحَيم بن وَثِيل الرِّياحى [2] :

عذرت البزل إن هى خاطرتنى　　فما بالى وبال ابنَىْ لبون
وماذا يدَّرى الشعراء منّى　　وقد جاوزت حدَّ الأربعين
أخو خمسين مجتمع أَشُدّى　　ونجذنى مداورة الشئون [3]

وهى عند (ذى الرمة) نصف الهرم ، قال حين حضرته الوفاة : (أنا ابن نصف الهرم ، أنا ابن أربعين سنة) . وكان ذلك سنة ١١٧ هـ ، فمولده سنة ٧٧ هـ . وقد وصف حياته بقوله :

ودَعْ ذكر عيش قد مضى ليس راجعا　　ودنيا كظل الكرم كنا نخوضها

وقد مرَّ بنا أنها عند أبى العلاء نهاية الصبوة والفتاء ، ولعب الشباب .

ومع الأربعين يغد غالبا الضيف الثقيل (الشيب) قال علي بن جَبَلة ، المشهور بالعَكوَّك [4] ، أبياتا يقول عنها الآمدى : لا شئ أجود منها في معناها، وتروى لِدِعبل بن علىّ :

ألقى عصاه وأرخى من عمامته وقال : ضيف فقلت : الشيب . قال : أجَلْ

---

(١) فى : (التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه) ص ٣٧ قال البكرى : (هذا الشعر للأقيشر . كذلك ذكر ابن قتيبة والأصبهانى ، واسمه المغيرة بن عبد الله من بنى أسد – إسلامى .

(٢) شاعر مخضرم . عاش في الجاهلية أربعين سنة ، وفي الإسلام ستين سنة ، وكان شريفا في قومه . وممن ترجموا له البغدادى في (خزانة الأدب) – ١ / ١٨١ ، ١٨٢ .

(٣) البزل جمع بازل وهو البعير المسن . خاطرتنى : راهنتنى . ابن اللبون : ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة . يدَّرى – ويروى يبتغى – من درى الصيد إذا ختله . اجتماع الأشد : اكتمال القوة في البدن والعقل .

نجذنى : أحكمتنى التجارب . المداورة : المعالجة والمزاولة .

(٤) أحد فحول الشعراء . قال الجاحظ في حقه : كان أحسن خلق الله إنشادا ، ما رأيت مثله بدويا ولا حضريا ، وكان من الموالى ، وكان أعمى (الشعر والشعراء ٢ / ٣٥) . قتله المأمون ببيتين كفر فيهما سنة ٢٢٣ هـ ببغداد .

فقلت : أخطأت دار الحيِّ قال : لقد مرَّت لك الأربعون الوفر ، ثم نزلْ

فما شَجِيتُ لشئ ما شَجِيتُ له كأنما اغتَّم منه مفرِقى بِجَبلْ [١]

ويقف بجانبه أبو الفتح محمد بن عبد الله الكاتب ، المعروف بابن التعاويذى . إذ يقول [٢]:

يا طالبا بعد المشيب غضارة من عيشه ذهب الزمان الأطيب

أتروم بعد الأربعين وعدِّها وصل الدمى هيهات عزَّ المطلب

وهما يشتركان مع البحترى فى اقتران الشيب بالأربعين ، ويزيد عليهما إذْ يقول :

نظرت إلىّ الأربعون فأصرخت شيْبى وهزت للحنوّ قناتى

وأرى لدات أبي تتابع كثرهم فمضوا وكرَّ الدهر نحو لداتى

أبنى إنى قد نضوت بطالتى فتحسَّرت وصحوت من سكراتى

وفى سنِّ الأربعين كانت توبة عمر بن أبى ربيعة .

قال الأصبهانى : أخبرنا الحَرمِىّ حدثنا الزبير بن بكار قال : حدثنا محمد ابن الضحاك قال : عاش عمر بن أبى ربيعة ثمانين سنة ، فتك منها أربعين سنة ، ونسك أربعين [٣] .

عن الحسن : مات عمر وقد قارب السبعين أو جاوزها [٤] .

وكان عمر قد أقسم حين توبته ألا يقول بيتا من الشعرْ إلا أعتق عبدا أو أمة، ثم إن حالا عرضت له مرة اضطر فيها نفسيا أن يقول شعرا فأنشأ تسعة أبيات وأعتق عن كل بيت برا بقسمه .

ويقف الدكتور زكى مبارك فى كتابه : (حب ابن أبى ربيعة وشعره)

---

(١) الموازنة ٢ / ٢٢٠ . تحقيق السيد صقر .

(٢) وفيات الأعيان ٦ - ٢١٠ - تحقيق محيى الدين عبد الحميد .

(٣) ١ - ٧٧ . (٤) ١ - ٧١ .

متسائلا : كيف يمكن أن يسكت هذا الشاعر عن قول الشعر ثلاثين أو أربعين سنة ؟ ويرجح أن عمر قال شعرا فى هذه المدة ، وأن الرواة نسوة أوتنا سوه . قال : لأن هواهم كان يقضى ببقاء هذه الشخصية الجذابة فى مرحها ولهوها لتظل متعة بين نكت السمر وأطايب الحديث (١) .

وهذا قول غريب فإننا نتصور أن الرواة كانوا حريصين على رواية الوجه الآخر من مثل هذا الشاعر اللاهى الراجع إلي الله ؛ لأنه طور غريب وما أعشق الرواة وغيرهم للغرائب ، فلابد أنه قال في بكاء شبابه وضياعه في اللهو والغزل ، وأن يقول ما عساه يكفر عنه تفريطه فى جنب الله .

على أن من الرواة من كان هذا اللون من الشعر أحب إليهم وفاء لدينهم ، ورغبة فى إذاعة مثله .

والذى أرجحه أن توبة عمر كانت حين تقدمت به السن ، وعجز عن ملاحقة الغوانى في الأماكن اللاتى كان يتعقبهن فيها . فبعيد كل البعد أن يمكث شاعر أى شاعر مثل هذه المدة لا تلح عليه شاعريته فى أن يصور الحال التى هو فيها . وبعيد كل البعد أن يتجاهل كل الرواة نسيانا أو تناسيا مثل هذا الشعر الذى يدخل أول ما يدخل فى باب الطرائف .

ولعل مما يدل على ذلك قول عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – فاز عمر ابن أبي ربيعة بالدنيا والآخرة : غزا فى البحر فاحترقت سفينته فاحترق (٢) ، ولو كان لعمر شعر إسلامى لنوه به ابن عمر فى هذه الشهادة .

ومن الإنصاف لعمر ما ذكره صاحب الأغانى عن الزبير بن بكار ، قال : لم يذهب عن أحد من الرواة أن عمركان عفيفا : يصف ويقف ، ويحوم ولا يزد(٣) .

ومن الطرائف التى اقترنت بالأربعين أن رجلاً طلق زوجته فقالت له : بعد صحبة أربعين سنة تطلقنى ؟! قال : ما عندى لك ذنب غيرها .

---

(١) ص ٢٩٦ .
(٢) الشعر والشعراء ٢ / ٥٥٤ .
(٣) ١ – ١١٩ .

ونفهم من كلمة الرجل أن المرأة كانت كاملة فى كل صفاتها ، فهى على جانب من الجمال ، كريمة الخلق ، أصيلة النسب ، مطيعة لزوجها ، حسنة الرعاية لبيتها ، فكيف سمحت نفسه بتسريحها ، مع كل هذه الصفات ، ومع الصحبة الطويلة ؟!

هل هو الملل من طول الصحبة ؟ هل هو الاستهانة بالنعمة حين يطول تقلب الإنسان فيها ؟ هل هو الحمق الذى يعترى بعض الناس في فترة من فترات حياتهم ؟!

المعروف أن الإلف مع حسن الصحبة يدعو إلي التمسك برفيق الحياة ، والحرص على الصاحب المواتى ، بل على الأمر لا يُرغَب فيه ، كما يقول الشاعر :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبى موجَع القلب باكيا

ولكن الإلف – أيضًا – قد يفقد بعض الناس الإحساس بالنعمة ، وقد أفصح عن ذلك أبو العلاء المعرى :

إذا أَلف الشئ استهان به الفتى فلم يره بؤسى تعدُّ ولا نُعْمى
كإنفاقه من عمره ومذاقه من الماء عذبا لا يُحَسُّ له طعما

على أى حال هذه زوج صالحة لا عيب فيها ، وما ظلمها إلا الزمن ، والحقيقة التى لا يجب تجاهلها أن أعدى أعداء الصحبة فقدان الموافقة في الطباع. وقد قيل قديما : شرط المرافقة الموافقة . فإذا اختلف الصاحبان فى الطبع أو في المذهب أو في أي أمر من مقومات الحياة كانت صحبتهما علي خطر .

كان الكميت الأسدى شيعيا ، وكان الطِّرِمَّاح خارجيا ، وكانت بينهما صحبة لم تكن بين مختلفين فى المذهب ، فقيل للكميت أو للطرماح – لا أذكر– : كيف تصادقتما وبينكما ما بينكما من الاختلاف ؟! فقال : اتفقنا علي بغض العامة .

وهذا جواب صريح فى أنه لابد للصاحبين أن يتفقا فى شئ ما ، ولو كان بغض العامة .

وقد ذكر ابن قتيبة فى (عيون الأخبار) قال : قال إسحاق : أنشدنى ابن كناسة :

لقد كان فيها للأمانة موضع   وللسِّرِّ كتمان وللعين منظر

قلت : ما بقى شئ . قال : فأين الموافقة .

ولكن نرجع إلى أصل الطرفة فيبدو لنا أن المرأة كانت موافقة أيضًا لأنه لم يذكر لها عيبا إلا طول الصحبة ، فلا مناص من أن نحكم علي هذا الزوج بالحمق، وعلى أنه لم يكن أهلا لهذه الزوج الصالحة .

*   *   *

الخمسون

وعندها يدرك اليأس أبا العلاء ، ويشعر أنه لم يعد ينفع ترقيع ما انخرق ، ولا وصل ما انقطع ، وماذا يُجدّ الحبل بعد مارث ، وأوشك علي البلى ، وإذا كانت الرمال عطشى ، تلهب الرمضاء كل ذرة فيها فهل ينفعها الطل ، ويروى غلتها ، وهى في أشد الحاجة إلي الوبل ، والوبل قد انقطع ؟

عَلِقتُ بحبل العمر خمسين حجة　　فقد رثَّ حتى كاد ينقطع الحبل

وهل ينفع الطّل الذى هو نازل　　بذات رمال عندما جحد الوبل

وقد سبقه البحترى حين خيَّلت له صاحبته أن التصابى حمق بعد خمسين :

خيّلت أن التصابى حمق　　بعد خمسين ومن يسمع يخَلْ

فكيف تظلمه – إذا – هى أو مثيلة لها ، فتطلب منه الشباب بعد خمسين، والإنسان لا يستطيع مقاومة الدهر :

تطلب عندى الشباب ظالمة　　بعيد خمسين حين لا تجده

من يتطاول على مطاولة العيـ　　ـش تُقَعْقِع من مَلَّة عمدُه

قال الآمدى : وقوله : (تقعقع من ملة عمده) أى عظامه يجئ لها صوت إذا قام أو قعد من الكبر والضعف .

وقوله : (من مَلَّة) أي من تملّى العيش ، يريد طوله ودوامه ، ومنه : تملّيت حبيك [1] .

ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد فى الفصل الذى كتبه عن وحى الخمسين على كلمة لفكتور هيجو ، يقول فيها : (إن الخمسين شيخوخة الشباب ، ولكنها شباب الشيخوخة) فيقول العقاد : (إن الخمسين سنُّ التطفية وعمل الحساب ، ليعرف الإنسان نصيبه من الربح ، ونصيبه من الخسارة ، وهى – من ثَمَّ – سنُّ اغتناء ، وليست سنَ افتقار ، وهى لا تقل غنىً عن الأربعين ، وقد تفوقها غنًى من وجوه .

---

(١) المطالب العالية لفخر الدين الرازى جـ ٧ . ص ٢١٦ .

ويقول الرازى [1] : وقد لحظ ملوك العجم هذه المزايا فى الأربعين والخمسين فكانوا لا يختارون الرجال للمحادثات المهمة إلا الذين يكونون بين الأربعين والخمسين.

قالوا: لأن فى هذا الوقت يتكامل العقل، ولم يحصل فى البدن نقصان ظاهر.

* * *

ويحس الحجاج بن يوسف بدنو الأجل حين بلغ الخمسين، فيقول فى رسالة كتب بها إلى قتيبة بن مسلم: (إنى نظرت فى سنك فوجدتك لِدَتى، وقد بلغت الخمسين، وإن امرءاً سار إلى منهل خمسين عاما لقريب منه).

أما إذا أناف على الخمسين فلا ينتظر شيئا من السعادة، هذا ما يراه أبو العلاء المعرى:

إذا أناف على الخمسين حاملها فلَيُضمِر اليأس من سْعد وإقبال
والعمر إصعادُ إنسان ومهبطه كالأرض أوديةٍ منها وأجبالِ

* * *

ولكن الشاعر أحمد بن محمد المشهور بالصَّنوبرى [ت ٣٣٤] يظل يلهو، ويصف الرياض والأزهار، ويتجاوب مع الطبيعة حتى تظله السابعة والخمسون، ولم يحمله تجاوز الخمسين على اليأس من السعد والإقبال، بل إنه قضى بعد أن بلغها سبع سنين يلهو ويلعب فلما وصلها ودع البطالة، وثاب إلى الجد والوقار:

ألقى رداء اللهو عن عاتقى خمس وخمسون مضتْ واثنتان

وفى الخمسين أو قريب منها كانت توبة (أبى على الحكمى). وقد كان الرجل عالما، حفظ القرآن على يد العالم الورع يعقوب الحضرمى، ولما أتم حفظه قال له أستاذه: (اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة).

---

(١) الموازنة جـ ٢ . ص ٢١١ . تحقيق الأستاذ سيد أحمد صقر .

وكان محدثا روى عنه محمد بن إدريس الشافعى – كما ذكروا – وقد درس النحو على أئمة عصره، وبرع فى غيره من العلوم، قال فيه إسماعيل بن نوبخت: (إنه أعلم الناس). وكان ملما بثقافة عصره من ثقافة عربية وفارسية وهندية ويونانية.

ثم أدركته شقوته فأصبح أستاذ ابليس بعد أن كان هو من جند إبليس، وكانت همته – كما يقول – غير الرشاد، وأصبح اسمه علما على المجون والفساد، بل ربما مال خينا إلى الإلحاد فهو – كما يقول – رأى إتيانه اللذاذة والهوى والتعجل من طيبات الدنيا أولى من تنظر آجل علمه به خبر من الأخبار.

ثم بدأ المرض يداعبه، فتنبه – أولا – إلى أنه لا ثمرة مما جناه على نفسه إلا الذنوب والعقوبة عليها:

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم ... وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه ... فإذا عصارة كل ذاك أثام

ويشتد عليه المرض فيذكر طاعة الله التى أهملها، وشبابه الذى أفناه فى طاعة نفسه:

دب فىَّ السقام سفلا وعلوا ... وأُرانى أموت عضوا فعضوا

ذهبت جدِّتى بطاعة نفسى ... وتذكرت طاعة الله نضوا

قد أسأنا كل الإساءة يارَ ... بُّ فصفحا عنا وغفرا وعفوا

وتقترب النهاية غاية القرب، ويرسل كل زفرات نفسه فى أبيات لعله لم يجد من يعطيه إياها فدسها تحت وسادته، حيث وجدها من قاموا بشئون إعداده للقبر شاهدة على ثقل ما وجد، وعلى الأمل فى عفو الله ومغفرته:

يا رب إن إن عظمت ذنوبى كثيرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم

مالى إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم أنى مسلم

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذى يرجو ويخشى المجرم

هذه الكلمة (جميل عفوك) سبق بها عالم من علماء المسلمين ولد فى السنة التى مات فيها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وحفظ القرآن فى صغره، وأخذ نفسه برواية الحديث والزهد فى الدنيا، وكان لا يفارق مجالس العلماء، ولا يخرج من المسجد لشأن من شئون الدنيا، عرف بالورع والزهد، وحفظ عن عثمان وسمع من أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله - ﷺ - ورضى الله عنهم أجمعين. أصبح عالما أديبًا - تولى القضاء والفتيا فى المدينة وسنه إحدى وعشرون سنة فكان مثال القاضى النزيه، والحكم العدل، وكان الناس يقولون ما أعد له. ومن كلامه : (ولا قصدت كبيرة من محارم الله، متلذذا بها وواثبا عليها).

ولما بلغ الثانية والأربعين تولى الخلافة، وتغيرت حاله، وفى ذلك يقول (لقد كنت أمشى فى الزرع فأتقى الجندب أن أقتله، وإن الحجاج ليكتب إلى فى فئام (جماعات) من الناس فما أحفل بذلك [1]).

ويبلغ الغاية فى القدر - فتكون أول غدرة فى الإسلام - حين خرج عليه ابن عمه عمرو بن سعيد فيعطيه الأمان، ويكتب له بذلك عهدا، ثم يستدعيه إلى بيته، ولما تمكن منه أمر بأن يصرع له، وجلس على صدره، وأخذ يذبحه كما تذبح الشاة.

وقد طلب من زوجة عمرو أن ترد إليه كتاب الصلح قالت: (إنى وضعته فى كفنه ليقاضيك به عند ربه).

* * *

وتمر الأيام والسنون، ويقف على المنبر يوما، ويخطب خطبة بليغة ثم يقطعها ويبكى بكاء شديدا، ثم يقول:

يا رب إن ذنوبى عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبى.

---

(١) الحيوان ج ٥ ص ٥٩١.

قال الأصمعي : فبلغ ذلك الحسن – يعنى الحسن البصَرى – فبكى، وقال : لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام.

(عفو الله، هو أمل كل مسلم، وبه دعاء كل موحد).

* * *

ومن لطائف الخمسين

قال الجاحظ

وكان عندنا قاضٍ يقال له : (أبو موسى كوشُ) فأخذ يوما فى ذكر قصر الدنيا، وطول أيام الآخرة، وتصغير شأن الدنيا، وتعظيم شأن الآخرة فقال :

هذا الذى عاش خمسين سنة لم يعش شيئا، وعليه فضل سنتين، قالوا : وكيف ذلك؟! . قال : خمس وعشرون سنة ليل، هو فيها لا يعقل كثيرا ولا قليلا، وخمس سنين قائلة، وعشرون سنة إما أن يكون صبيا، وإما أن يكون معه سكر الشباب، فهو لا يعقل، ولا بد من صُبحة بالغداة ، ونعْسَة بين المغرب والعشاء كالغشى الذى يصيب الإنسان مرارا فى دهره، وغير ذلك من الأوقات، فإذا حصلنا ذلك فقد صح أن الذى عاش خمسين سنة لم يعيش شيئا، وعليه فضل سنتين [1].

* * *

---

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٢٦ . والقائلة : نوم الظهيرة، والصُّبحة : النوم فى الغداة – ويفهم من كلام القاضى أنهما تستغرقان سنتين.

الســــتون

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: (أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة [1]).

وها نحن أولاء نقف على عتبتها، وهى التى تبدأ بالعشر التى أخبر النبى – عليه الصلاة والسلام – بأن أعمار أمته فيما بينها، وكذلك هى العشر التى كانت العرب تُسّميها: (دّقاقة الرقاب).

ونترك الحديث لجار الله الزمخشرى ليخبرنا عنها، فقد أجاب أصحابه الذين طالما ألحوا عليه أن يفسر القرآن الكريم، فكان يسوِّف إلى أن أظلته الستون.

قال: (قلت وقد ضاقت على المستعفى الحِيَل، وعيَّت به العلل، ورأيتنى قد أخذت منى السنّ، وتقعقع السّنّ، وناهزتَ العشر التى سمتها العرب دقَّاقة الرقاب، فأخذت فى طريق أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر، ووفق الله وسدّد، ففرغ منه فى مدة خلافة أبى بكر – رضى الله عنه – وكان يُقَدَّر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة، وما هى إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علىَّ من هذا الحرم المعظم [2])

وفيها بيت أبى العالية المشهور، الجارى على الألسنة:

أرى بصرى فى كل يوم وليلة ... يكل، وخطوى عن مدَى الخطو يقصر
ومن يصحب الأيام ستين حجة ... يغيِّرنه، والدهر لا يتغير

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الرقاق.

(٢) فرغ الزمخشرى من تفسيره فى ٢٣ من شهر ربيع الأول سنة ٥٢٨ هـ، فكانت سنه حينذاك إحدى وستين سنة، فمعنى (ناهزت): قاربت. ولد فى ٢٧ من رجب سنة ٤٦٧ هـ، وتوفى فى ٩ من ذى الحجة سنة ٥٣٨ هـ. فكان عمره عند وفاته [١٢ يوما – ٤ أشهر – ٧١ سنة]. والكلمات فى آخر الكشاف.

لعمرى لئن أمسيت أمشى مقيَّدا . لما كنت أمشى مطلق القيد أكثر[1]

* * *

والخامسة والستون

جاء فى حماسة أبى تمام بيتان لم ينسبهما [2]:

أعاذل ما عمرى وهل لى وقد أتى ... لِداتى على خمس وستين من عمر

رأيت أخا الدنيا وإن كان خافِضا ... أخا سفر يُسرى به وهو لا يدرى

* * *

(١) معجم الأدباء ج ١٧ – ص ٢٠٨.

(٢) ج ٣ . ص ١٥٤.

السبعون

أما السبعون فقد ضاق بها كثيرون، شكَوْا وبَكَوْا، ولكنها تَكبح جماح الهوى، وترد الشارد، وتوقظ الغافل، وتَعْدل بهما عن ثَنيَّات الطريق، ولا يبلغها أحد فيظل سادراً فى غَيِّه إلا كان ذلك دليلا على خذلان الله له، ولكن – ونعوذ بالله من الخذلان – من بلغ السبعين ولا تزال الأمانى تخدعه، ولا يزال الشيطان يزين له الباطل، ويكون كما قال أبو العلاء:

وعقلك يا أخا السبعين واه   كأنك فى ملاعبك ابن سبع

ويغيب عنه قول الآخر:

إذا عاش الفتى سبعين عاما   فقد ذهب المسرة والفتاء

وقول البهاء زهير:

بالله قل لى يا فلا   ن، ولى أقول ولى أسائلْ
أتريد فى السبعين ما   قد كنت فى العشرين فاعل؟
هيهات لا والله ما   هذا الحديث حديث عاقل
قد كنت تُعْذَر بالصِّبا   واليوم ذاك العذر زائل
منَّيتَ نفسك باطلا   فإلى متى ترضى بباطل؟!!

* * *

ولعل أشجى ما قيل فى السبعين، وأصدقه القصيدة التى بعث بها الشهاب محمود من مصر إلى الإمام تقى الدين الصَّالحى بالشام، وفيها يقول:

ولَّت بشاشة أيامى فلو عُرِضَتْ   علىّ أعرضتُ عنها غيرَ مُستام
هل بعد سبعين لى إلا التأهب من   أجل الرحيل بإسْراج وإلجام
الناس يرجون ما قدْ قدَّموا لغد   والخوفُ من سُوء ما قدَّمت قدَامى
ولستُ أرجو سوى عفوا لإله وأن   ألقى السلامة فى الأخرى بإسلامى
بلى وحبٍّ الذى أرجوه يشفع لى   غداً إذا جئته أسعى بأثامى

والشكوى منها معنىً صاحب الحكماء والشعراء منذ القدم:

روى ابن قتيبة فى (عيون الأخبار – ١٥٣) قال: قال بعضهم: (نجد فى زبور آل داود: من بلغ السبعين اشتكى من غير علة [١]).

ولما سمع الحجاج بن يوسف التَّيمى بالرسالة التى بعث بها الحجاج بن يوسف الثقفى إلى قتيبة بن مسلم، والتى أوردتها آنفا – أنشأ:

إذا كانت السبعون سنَّك لم يكن ... لدائك إلا أن تموت طبيب

وإنْ امرءا قد سار سبعين حجة ... إلى منهل من ورده لقريب

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوتُ ولكن قل علىَّ رقيب

إذا ما انقضى القرن الذى أنت فيهم ... وخُلِّفتَ فى قرن فأنت غريب

* * *

(١) جاءت هذه الكلمة فى (عيون الأخبار – ٣٢٠) أيضا بتفسير يسير.

الخامسة والسبعون

قصة طريفة جرت بين أبى حفص بن برد وأبى العلاء صاعد اللغوى كتب ابن برد إلى صاعد قصيدة جاء فيها:

إِنَّا نناديك للجُلَّى وأنتَ لها ... طَبٌّ تعالج منها كلَّ مطلوب

فهل شعرَت ببدر طاف بى غلَسًا ... رخْص البنان كحيل العين مخضوب؟

فكتب إليه صاعد من قصيدة:

لبَّيْك ألفًا أبا حفص إجابَة مَن ... يُدلى إليكَ بوُدٍّ غير مأشوب

أبعد خمس وسبعين التحفت بها ... حتى قرعت لهذا الدهر طُنبوبى

رميْننى بسهام غير طائشة ... حورٌ زَرَيْن على صمِّ الأنابيب

يا مَن يرقِّع بالآمال ما خرقت ... يدا الليالى قبيح صبوةُ الشيب [1]

ناديتنى لخيال عزّ مطلبُه ... فهل ليوم عصيب إذْ تنادى كإلى؟!

نعم. قبيح صبوة الشيب.

وكما قال أبو إسحاق الألبيرى الأندلسى:

لَيَقْبُحُ بالفتى فعلُ التَّصابى ... وأقبحُ منه شيخ قد تفَتى

وهو من قصيدة [2] تبلغ مائة واثنى عشر بيتا، ومطلعها:

تفُتُّ فؤادك الأيام فتًّا ... وتنحت جسمك الساعاتُ نحتا

وهل بعد المشيب استمتاع؟ يُجيب علىٌّ بن بسام [*]:

---

(١) الذخيرة لابن بسام ج ١ ص ١٠٨، ١٠٩ - وقرع ظنبا بيب الأمر: ذلَّله (قاموس).

(٢) نسبت القصيدة لإبراهيم بن مسعد الأندلسى، ولعله هو أبو إسحاق الألبيرى.

(*) أبو الحسن على بن محمد بن نصر. كان من أعيان الشعراء، ومحاسن الظرفاء، مطبوعا فى الهجاء. ولم يسلم منه أمير ولا وزير، ولا صغير ولا كبير، هجا أباه وإخوته، وسائر أهل بيته. توفى عن نيف وسبعين سنة، ومن شعره:

وكانت بالصَّراة لنا ليال ... سرقناهن من ريب الزمان

أقلعت عن طلب الغواية والصبا　　لَمَّا عــلانى للمــشــيب قناع

لله أيام الشــبـــاب ولهـــوُه　　لو أن أيام الشــبـــاب تبـــاع

فدع الصِّبا يا قلب واسل عن الهوى　　ما فيك بعد مشيبك استمتاع

وانظر إلى الدنيــا بعين مــودِّع　　فلقــد دنا ســفــر وحــان وداع

فـالحـادثات مُـوَكَّـلاتُ بالفـتى　　والمرءُ بعـد الحـادثات سَـمـاع

وما أصدق (شوقى) وأبرعه فى وصفه صورة العجوز المتصابى، وقد عَنْوَن لها بالشيخ المُهندَم. قال:

أيهـا الشـيخ المهندم المقـذَّذ، مـا غـرَّك بالسّنّ حـتى لبـست للصـبـا ثيـابه، ونازعت حفيدك شبابة، إنما مثَلُك فى هذا البريق المزوَّر، وهذه النضارة المصطنعة كمثل الضِّرس المحشوِّ المكسُوِّ، نُزِع منه العصبُ، وخُلع عليه الذهب [١].

* * *

(١) أسـواق الذهب ص ١١٨ – والمهندم: المصلح على مـقـدار (قـامـوس)، والمقـذَّذ كـمعظَّم: المزيد كـالمقذوذ، والمقـصص الشـعـر، والرجل الخـفـيف الهـيـئة. وكل مـا سوِّى وألطف (قاموس).

السابعة والسبعون

لبيد بن ربيعة – رحمه الله – :

باتت تشكى إلى النفس مُجهِشةً　　وقد حملتُكِ سبعا بعد سبعينا

فإن تُزادى ثلاثا تبلغى أملا　　وفى الثلاث وفاء للثمانينا

حدّث الشعبى، قال: (أرسل إلى عبد الملك بن مروان، وهو شاك، فدخلت عليه فقلت: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟ فقال: أصبحت كما قال ابن قميئة أخو بنى قيس بن ثعلبة. قلت: وما قال؟ قال: قال:

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة　　خلعت بها عنى عِذارَ لجامى

رمتنى بناتُ الدهر من حيث لا أرى　　فكيف بمن يُرمى وليس برامى

فلو أنها نَبْلٌ إذًا لاتقيتها　　ولكننى أرمى بغير سهام

على الراحتين مرةً وعلى العصا　　أنوءُ ثلاثا بعدهن قيامى

فقلت: لا يا أمير المؤمنين، ولكنك كما قال لبيد بن ربيعة أخو بنى جعفر ابن كلاب. قال: وما قال: قلت: قال: (باتت تشكى ... البيتين)، فعاش والله يا أمير المؤمنين حتى بلغ تسعين حجة، فقال:

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة　　خلعت بها عن منكبىَّ ردائيا

فعاش حتى بلغ عشرا ومائة فقال فى ذلك:

أليس فى مائة قد عاشها رجلٌ　　وفى تكامل عشر بعدها عُمرُ

فعاش والله يا أمير المؤمنين حتى بلغ عشرين ومائة سنة، فقال فى ذلك:

وغَنيت سَبْتًا بعد مجرى داحس　　لو كان للنفس اللجوج خلود [1]

فعاش حتى بلغ أربعين ومائة سنة، فقال فى ذلك:

ولقد سئمت من الحياة وطولها　　وسؤال هذا الناس كيف لبيد

فقال عبد الملك: ما بى بأس، اقعد حدثنى ما بينك وبين الليل، فقعدت فحدثته حتى أمسيت، فمات فى ليلته [2].

---

(١) السبت: الدهر.　　(٢) كتاب المعمَّرين من العرب ص ٥٣، ٥٤. ط التجارية.

العـــــصا

ليست عصا (موسى) عليه السلام التى كان يهش بها على غنمه، وألقاها فإذا هى حية تسعى، وآمن سحرة فرعون حين لقفت ما يأفكون .

ولا هى عصا (الجاحظ) التى أتخذ منها أداة لامتداح خطباء العرب، وردًا على من عابهم بحملها .

وليست عصار (الحطيئة) التى جاءت فيما ذكر الجاحظ . قال : كان الحطيئة يرعى غنما له، وفى يده عصا، فمرَّ به رجل، فقال : يا راعى الغنم : ما عندك؟ قال : عجراء من سلم – يعنى عصاه – قال : إنى ضيف، فقال الحطيئة : للضيفان أعددتها (١) .

ولا عصا الشاعر الذى أعدها لغرمائه إذا جاءوا يتقاضون ديونهم عليه :

إنى وجـدّك لا أقـضى وإن   حان القضاء وما رقت له كبدى

إلا عـصـا أرزن طارت بُرايتُـهـا   تنوء ضربتها بالكف والعضد (٢)

وليست عصا (الأعمى) التى تهديه الطريق، والتى قال فيها أحد زملائنا بعد أن قضى خمسة عشر عامًا فى الدراسة فى الأزهر، وقبلها خمسة أعوام فى (الكُتّاب)، وقيل له : علام حصلت بعد هذا الزمن الطويل فى القراءة والدرس؟ فقال : حصلت على (العَالَمِيَّة) و(العصا) يريد أنه مع الحصول على هذه الشهادة الرفيعة أصيب بالعمى .

ولا هى عصا (سيّدنا) محفظ القرآن حين كان يضربنا بها، فنصبح : (عصاك من الجنة) .

ليست واحدة من هذه العصى، ولكنها عصا (ابن قميئة) التى كان يقوم ثلاثا معتمدا عليها : (على الراحتين مرة وعلى العصا) .

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٤٧ – ولا يقال : (عصاة) . قالوا : وهو أول لحن وقع فى البادية، والعجراء : الكثيرة العُجَر أى العُقد، والسَّلَم – بالتحريك – شجر .

(٢) طارت برايتها : براية العود : ما يبرى منه أى ما ينحت، تنوء ضربتها : أى تثقل ضربتها الكف والعضد . [المشوف المعلم] . ص ٧٢٩ هامش .

عصا الشيخ الهِمِّ، يتوكأ عليها، ويستعين بها على النهوض وعلى المشى، والتى ذكرها (لبيد) فى قوله:

أليس ورائى إنْ تراخت مَنيَّتى　　لزومُ العصا تُحْنَى عليها الأصابع

أخبِّر أخبارَ القرون التى مَضَتْ　　أدِبُّ كأنى كلما قمتُ راكع

وكان محمد بن على بن الحسن، أحد الفقهاء الشافعية قد طعن فى السِّنِّ، وضعف عن المشى، فصار يتوكأ على عصا، فقال:

كل أمرٍ إذا تفكرت فيه　　وتأملتَه رأيت طريفا

كنت أَمشى على اثنتين قويا　　صرت أمشى على ثلاث ضعيفا

قال ابن خلكان: قلت: وإلى أبيات أشير فيها إلى هذا المعنى، وهى:

يا سائلى عن حالتى　　خذ أمرها ملخَّصا

قد صِرتُ بعد قوة　　تفُضُّ أفلاذ الحصا

أمشى على ثلاثة　　أجودُ ما فيها العصا

ومما يضطر الإنسان إلى حمل العصا أن يصير كما قال النمر بن تولب [1]:

يود الفتى طول السلامة والبقا　　فكيف ترى طول السلامة يفعل

يردُّ الفتى من بعد حسن وصحة　　ينوء إذا رام القيام ويُحمَل

ومن رائع ما قيل فى العصا ما نقله ابن خلكان عن ابن الأثير:

قال ابن خلكان فى ترجمة ضياء الدين بن الأثير: (وله من جملة رسائله فى ذكر العصا التى يتوكأ عليها الشيخ الكبير، وهو معنى غريب: (وهذه لِمُنتَهَى ضعفى خبر، ولقوس ظهرى وَتَر، وإن كان إلقاؤها إقامة، فإن حملها دليل السفر [2]).

ويشير بقوله: (وإن كان إلقاؤها إقامة) إلى مثل قول عبد ربه السُّلَمى:

فألقت عصاها واستقر بها النوى　　كما قرَّ عينا بالإياب المسافر

---

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٢٧٠.　　(٢) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٣٠.

ولَمّا كان حملها دليل السفر كان أحد الحكماء يحملها، فقيل له: مالك تديم إمساك العصا ولست بكبير ولا مريض؟ فقال: لأذكر أنى مسافر.

وقال بعض الشعراء:

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها　　　عَلىَّ، ولا أنى تَحَنَّيت من كبر

ولكننى ألزمت نفسى حملها　　　لأُعلمها أنى المقيم على سفر [1]

ولكنَّ أبا يوسف يعقوب بن صابر الملقب نجم الدين [2] المتوفى سنة ٦٢٦هـ حملها حين أحس بالرحيل عن الدنيا لما دعاه إليه المشيب:

ألقيتُ عن يدىَ العصا　　　زمَن الشبيبة للنزولِ

وحملتُها لما دعا　　　داعى المشيبِ إلى الرحيلِ

وإذا كانت العصا تُحمل ليتكئ عليها الشيخ الهرم، أو لأن المشيب آذن بالرحيل، أو لأن من الحكمة أن يتذكر الإنسان أنه دائما على سفر، إلى مقره الأخير.

إذا كانت فى كل ذلك تدل على تقدم السِّنّ، أو على تذكر الموت فإنها تدل على تقدم السِّن بطريقة أخرى غير حملها.

كان من عادة العرب إذا كبر السَّيد فيهم، وخِيفَ عليه أن يُخلِّط فى كلامه قرَعوا له العصا. قال الشاعر:

لِذى الحِلم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا　　　وما علِّم الإنسان إلا ليعلما

عن الشعبى – رحمه الله – قال: كنا عند ابن عباس – رضى الله عنه – وهو

---

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٢٣.

(٢) كنيته أبو يوسف، حرانى الأصل، بغدادى المولد والدار، كان ماهرا فى صناعة السلاح، وله فيه كتاب سماه: (عمدة السالك فى سياسة الممالك) وله ديوان شعر سماه (مغانى المعانى)، وكان شاعرا مكثرا مجيدا، وكان مليحا لطيفا متواضعا فكها، طيب النفس، ومولده سنة ٥٥٤ هـ وله فى الشيب بيت لطيف:

لو أن لحية من يشيب صحيفة　　　لمعاده ما اختارها بيضاء

فى ضفة زمزم يُفتى الناس إذْ قال أعرابى : أفتيتَ الناس فأفْتنا، قال هات، قال : أرأيت قول الشاعر المُتلمِّس : (وذكر البيت) قال ابن عباس : ذاك عمرو بن حُمَمَةَ الدَّوْسىُّ قضى على العرب ثلاثمائة سنة فكبر فألزموه السابع من ولده فكان معه، فكان الشيخ إذا غفل كانت بينه وبينه أن تقرع العصا حتى يعاوده عقلُه، فذلك قول المتلمس اليشكرى من بكر بن وائل [١] .

*　　*　　*

(١) كتاب المعمَّرين من العرب ص ٤٥ ط التجارية .

الثمانـــون

وشهرتها فى الشعر والأخبار تغنى عن تعرُّف الذين بلغوها ، ومن أشهر النصوص التى وردت فيها أبيات عوف بن مُحلِّم الخزاعى (*) :

قال أبو معاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عَوْفا دخل على عبد الله بن طاهر فسلّم عليه عبد الله فلم يسمع ، فأعلم بذلك ، فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالا :

يابن الذى دان له المشـرقـانْ	طرًّا ، وقـد دان له المغـربانْ
إنَّ الثمـانين – وبُلِّغـتـهـا –	قد أحوجتْ سمعى إلى تَرْجُمانْ
وبـدَّلـتْنـى بالشِّـطـاط انحـنـا	وكنتُ كالصَّعدة تحت السِّنانْ
وقـاربْت منى خطًا لم تكن	مقـاربات وثَنَتْ من عِنان (١)

وسار بيت الثمانين ، وصار أشهر من نار على علم ، وممن استشهدوا به أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ حين بلغ الثمانين .

ذكر أبو على القالى فى أماليه أن أبا معاذ المتطيِّب دخل على الجاحظ بـ (سُرَّ مَنْ رأى) ، وقد فُلِج ، فأتى رسول المتوكل يطلبه ، فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشِقٍّ مائِل ، ولُعاب سائل ؟ . ثم أقبل علينا ، فقال : ما تقولون فى رجل له شقان ، أحدهما لو غُرِز بالمسَالِّ ما أحسَّ ، والشِّق الآخر يمُّر به الذباب فَيغوِّث(٢)؟! . وأكثر ما أشكوه الثمانون ، ثم أنشد أبياتا من قصيدة عوف بن محلم الخزاعى .

ومن وقفوا عند الثمانين سعيد بن المسيِّب – رحمه الله – قال : ما أيِس

(١) أمالى القالى جـ١ . ص ٥٠ . والشِّطاط ، حسن القوام والاعتدال . الصعدة : القناة المستوية لا تحتاج إلى تثقيف .

(٢) يغوِّث : يصيح : واغوثاه .

* أحد العلماء الأدباء ، الرواة الفهماء ، الندماء الظرفاء ، الشعراء الفصحاء ، توفى سنة ٢٢٠ هـ .

الشيطان من بنى آدم قط إلا أتاهم من قِبَل النساء ، فقد أتى عليّ ثمانون سنة ، وذهبتْ إحدى عينيّ ، وأنا أعشو بالأخرى ، وإن أخوف ما أخاف عليّ فتنة النساء [١] .

وبمناسبة (فتنة النساء) ، أورد كلمة لابن المبارك الصَّابى ، وأذكرها كاملة – مع طولها – لما فيها من الغرابة فى تأثير المرأة علي الرجل .

قال ابن المبارك : ألستُم تعلمونَ أنى قد أرْمَيْتُ على المائة ، ومن كان كذلك ينبغى أن يكون فى وهَن الكرَّة [٢] ، وموت الشهوة ، وانقطاع ينبوع النطِفة ، وأن قد يكون مال جبينه إلي النساء ، وبفكره إلي الغزل ؟ قالوا : صدقت . قال : وينبغى أن يكون قد عوَّد نفسَه تركهنّ ، وهذا والتخلّى بهن دهرا أن تكون العادة ، وتمرين الطبيعة ، وتوطين النّفس قد حط من ثقل منازعة الشهوة ، ودواعى الباه ، وقد علمت أن العادة قد تستحكم ببعضٍ عمن ترك ملابسة النساء ؟! قالوا : صدقت .

قال : وينبغى أن يكون لِمَنْ لم يذق طعم الخلوة بهن ، ولم يجالسْهنَّ متبذلات ، ولم يسمع خِلابَهنَّ للقلوب ، واستمالتهن للأهواء ، ولم تَرهُنَّ متكشّفات ولا عاريات أن يكون إذا تقدم له ذلك مع طول التَّرك ألا يكون بقى معه من دواعيهن شئ ؟ ! قالوا : صدقت .

قال : وينبغى لمن علم أنه مجبوب ، وأن سببه إلي خِلاطِهِنّ محرَّم أن يكون اليأس من أمتن أسبابه إلي الزهد والسَّلوة ، وإلي موت الخاطر ؟قالوا : صدقت .

قال : وينبغى لِمَنْ دعاه الزهد في الدنيا أن خَصَى نفسَه ، ولم يُكْرِهْه علي ذلك أبٌ ولا عدوٌّ ، ولا سباه ساب أن يكون مقدار ذلك الزهد يميت الذكر ، وينسى العزم ؟ قالوا : صدقت .

---

(١) ذكر ذلك الزمخشرى عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾ من سورة النساء آية ٢٨ .

(٢) الكرة : العودة إلى تكرار الفعل .

قال : وينبغي لمن سخَت نفسه عن الشكر [١] ، وعن الولد ، وعن أن يكون مذكورا بالعاقب الصالح أن يكون قد نسى هذا الباب إن كان مرة منه علي ذكره ، وأنتم تعلمون أني سملت عيني يوم خصيت نفسى ، وقد نسيت كيفية الصور ؟ قالوا : صدقت .

قال : وليس لو لم أكن هَرِمًا ، ولم يكن ها هنا اجتناب ، وكانت الآلة قائمة إلا أني لم أذق لحْمًا منذ ثلاثين سنة ، ولم تمتلئ عروقى من الشراب مخافة الزيادة في الشهوة لكان في ذلك ما يقطع الدَّواعى ، ويُسَكِّن حركة إن هاجت ؟ قالوا : صدقت .

قال فإني بعد ما وصفت لكم لا أسمع نغمة لامرأة إلا أظنُّ أن عقلى قد اختُلس ، ولربما تراءى فؤادى عن ضحك إحداهن حتى أظن أنه قد خرج من فمى، فكيف ألوم عليهم غيرى [٢] ؟!! .

ونعود للثمانين ، فنذكر قول ابن أبى الصقر [٣] :

علَّةٌ سُمِّيتْ ثمانين عامًا ... منعتنى للأصدقاء القياما

فإذا عُمِّروا تمهَّد عُذرى ... عندهم بالذى ذكرتُ وقاما

ونذكر شكوى ابن زهر مما آلت إليه حالُه ، وكان قد نيّف على الثمانين – كما يقول المراكشى في (المُعجب) – وأبو بكر بن زهر الإمام المقدم في الموشحات، وهو آخر المجددين فى صناعتها ، توفي سنة ٥٩٥ هـ [٤].

نظر ابن زهر فى المرآة يوما ، فقال :

إنى نظرت إلي المرآة إذْ جُليتْ ... فأنكرت مقلتاىَ كلَّ ما رأتا

رأيتُ فيها شُيَيْخًا لستُ أعرفه ... وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى

---

(١) الشكْر : آلة الجماع .

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ جـ١ ص ١٢٦ ، وعيون الأخبار جـ ٤ ص ٩٨ .

(٣) ابن أبى الصقر الواسطى محمد بن على بن الحسن . كان فقيها شافعى المذهب لكنه غلب عليه الأدب والشعر ، واشتهر به .

(٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٤٥ ، وقد وردت الأبيات أيضا في نفح (الطيب) .

فقلت : أين الذى بالأمس كان هنا   متى ترحّل عن هذا المكان متى؟!!
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة   إنَّ الذى أنكرته مقلتاك أتى
كانت سُليمى تنادى يا أخَىَّ وقد   صارت سُليمى تنادى اليوم يا أبتا

وقريب من هذا قول العارف بالله جلال الدين الرومى :

(وقفت أمام المرآة فرأيت رجلا غريبا لا أكاد أتبيّن ملامحه ، ولا يُشبْه بأى صورة مِن الصُّور هذا الطفل الذى يعيش داخلى ولم يكبر مع الزمن ، ولم يعترف أصلا بوجود الزمن .

تأملت القناع والوجه أيهما الظل ، وأيهما هو الأصل ؟ ، وأين حقيقة الإنسان ؟ . إن الصُّورة ليست إلا ظِلالاً) .

ويُلَمِّح أبو إسحاق الغزِّى إلي بيت ابن محلم :

طول حياة مالها طائلٌ   تُغصّ عندى كلَّ ما يُشتَهى
أصبحتُ مثل الطِّفل فى ضعفه   تشابَه المبدأ والمنتهى
فلا تلم سمعى إذا خانني   إنَّ الثمانينِ وبُلغتَها[1]

وعلي شيخ الثمانين أن يقف عند سِنِّه ، فلا تخدعه نزوة طارئة ، أو عافية عابرة ، فيظن أن الشباب قد اصطلح معه بعد خصام وشقاق ، ويُخيِّلُ إليه الوهم أن الفتوَّة لا تزال تجرى فى عروقه .

وبعض هؤلاء المخدوعين يخضعون لأوهامهم أحيانا فيقدمون على ما لا ينبغى أن يقدموا عليه ، وقد عاب أبو العلاء على ابن السبعين الذى يتصرف وكأنه في ملاعبه (ابن سبع) فما بالنا بابن الثمانين ؟!.

* * *

(١) معاهد التنصيص جـ ١ . ص ٢٧٠ .

الخامسة والثمانون

وأروع ما جاء فيها قول أبى هلال العسكرى :

لىَ خمسٌ وثمانون سنة ... فإذا قدرْتها كانت سِنَة

إنَّ عُمرَ المرء ما قد عاشهُ ... ليس عُمرَ المرء مرُّ الأزمنةَ

ومن أصدق ما قاله حكيم فى هذا المعنى ما جاء فى البيت الثانى : (إن عمر المرء ما قد عاشه ...)، فالحياة التى تعد حياةً بحق هى أيام الصفاء والصحة والغنى والأمن. أما ما عدا ذلك فهى عدد.

جاء فى الأخبار أن أحد الحكماء كان رحَّالة، وكان من عادته عندما ينزل بلدا لأوَّل مرة أن يدخلها من جهة مقابرها، يزور المقابر ثم يدخل البلد.

وفى بعض المرات وقف متعجبا عند قبر، فقد وجد عليه مكتوبا : هذا قبر فلان الملك، اتسع ملكُه، ولم يهزم قط أمام أعدائه، وقضى فى هذه الحياة ثمانين سنة، وعاش ثلاثة أيام.

وانتقل إلى قبر آخر فوجد عليه : هذا قبر الوزير فلان، فعل وفعل، وقضى فى الحياة خمسًا وسبعين سنة، وعاش يومين.

وانتقل إلى قبر ثالث فوجد عليه : هذا قبر القاضى فلان فعل وفعل، وقضى فى الدنيا سبعين سنة، وعاش يوما واحد.

فلما اجتمع بأهل المدينة سألهم عن تفسير هذا الذى رآه مكتوبا علي القبور الثلاثة، فقالوا : نحن لا نعُدُّ من حياة الإنسان إلا أيام السَّعادة، والملك سعد فى ثلاثة أيام، والوزير فى يومين، والقاضى لم يسعد إلا فى يوم واحد.

وأعجبت الحكيم حكمة أهل هذه المدينة فقضى بينهم ما بقى من عمره، فلما حضرته الوفاة طلب إليهم أن يكتبوا على قبره : هذا قبر الحكيم الرحّالة،

جاب الأقطار، ولقى الملوك والأمراء، وجمع ثروة كبيرة، وقد قطع فى رحلة الحياة تسعين سنة ولم يعش ولا يوما واحدا [١].

* * *

وقد ذكر فى تاريخ الخليفة عبد الرحمن الناص الأموى الأندلسى. توفى وهو فى الثالثة والسبعين من عمره بعد أن حكم خمسين سنة، وبضعة أشهر، وكان يخطب له على المنابر بلقب (أمير المؤمنين الناصر لدين الله).

قال المؤرخون : وقد انتشل الأندلس من الفوضى، وأضعف إمارات النصارى، فى الأندلس، وخلّصها من سيطرتهم.

وهو الذى اختط مدينة (الزهراء) فحقق ببنائها رغبة مَحْظِيّته الزهراء التى كان يحبها حبا شديدا، فأطلق اسمها على المدينة الجديدة.

وقد استمر العمل فى المدينة أربعين سنة، استغرقت من حكمه خمسا وعشرين، وكان ينفق عليها كل سنة ثلث دخْل المملكة.

وكان قصر الخلافة تحفة عديمة النظير، يشرف على الرياض والبساتين، ومن ورائها نهر الوادى الكبير.

وقُدر عدد الفتيان من خَدَم القصر بثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين خادما.

وقُدِّر عدد نساء القصر من كل جنس وطبقة بثلاثة آلاف وثلاثمائة وأربع عشرة.

أما حجرات القصر فكانت أربعمائة حجرة.

ومع كل ذلك فقد كتب بخط يده أنه لم يَرَ السعادة إلا أربعة عشر يوما.

* * *

---

(١) هذه القصة فى ذاكرتى من زمن بعيد، وقد أعيانى العثور عليها فحكيتها بالمعنى، ولكن لم أخل بحقيقة مضمونها.

ومن زواجر الثمانين أن حكيما سُئل: أيولد لابن الثمانين؟ فقال: نعم. إذا كان له جار ابن ثلاثين!

وهى إجابة ساخرة لاذعة، جارحة قارصة، ولكن لعلها توقظ من يغط فى سُبات أوهامه، وخوادع أحلامه، وضلالات أيامه، وينسى أنه ابن الثمانين. ويغفل عن المقولة المشهورة: إذا بلغ الرجل السِّتين فإياه وإيَّا الشَّوابّ.

* * *

وكما جرى كثيرون غى حلبة عوف بن محلم، وبخاصة الشعراء وجْدنا من يعارضه فيزعم أن الشباب يبتدئ فى الثمانين، أو يدعى أن الثمانين لم تَفُتَ فى عضده، ولم تنل منه شيئا.

ومن أولئك الشهاب المنصورى الذى يقول [1]:

نحو ثمانين من العمر قد قطعتها مثل عقود الجُمان
ما أحوجت يوما عيْنى إلى عصا، ولا سمعى إلى ترجمان

وكأنى بأبى العلاء المعرى يصيح بهؤلاء وأولئك إذْ يقول:

أجدك لا ترى الإنسان إلا قليل الرشد محتملا ملاما
وتحمله الغريزة وهو شيخ على ما كان يفعله غلاما

ويخالفه الشهاب المنصورى حيث يقول:

نحو ثمانين من العمر قد قطعتها مثل عقود الجُمان
ما أحوجت يوما يمينى إلى عصا ولا سمعى إلى ترجمان

* * *

(١) معاهد التنصيص ج ١ ص ٣٧٠.

الثمانية والثمانـــون

قال ابن خلكان نقلا عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى: عاش يونس بن حبيب ثمانيا وثمانين سنة، لم يتزوج، ولم يتَسَرَّ، ولم تكن له همة إلا طلب العلم، ومحادثة الرجال.

وروى عنه محمد بن سلام الجمحى قوله: ما بكت العرب على شئ فى أشعارها كبكائها على شبابها، وما بلغت كنهه.

وكان يونس يقول: لو تمنَّيتُ أن أقول الشعر لما تمنيت أن أقول إلا مثل قول عدىّ بن زيد العِبادى.

أيها الشامت المعيِّر بالـ ـدَّهْر أأنت المبرأ الموفور

قلت: وبعد هذا البيت:

أم لديك العهد القديم من الأيـ ـام، بل أنت جاهل مغرور

ولعل يونس كان ينشد البيتين معا، ولكن الرواية اقتصرت على البيت الأول.

* * *

التسعون وما فوقها

ونعود هنا للجاحظ، وسنه ومرضه.

كان يقول: أنا من جانبي الأيسر مفلوج فلو قرص بالمقاريض ما علمت به، ومن جانبي الأيمن مُنَقْرِشٌ فلو مرَّ به الذباب لألمْتُ، وبي حصاة لا ينسرح لي البول معها، وأشدّ ما عليَّ سِتٌّ وتسعون سنة، وكان ينشد:

أترجو أن تكون وأنت شيخ — كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتْك نفسُك ليس ثوب — دريس كالجديد من الثياب

وكانت وفاته في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة ومن شعره في مرضه:

لئن قُدِّمتْ قبلي أناسٌ فطالما — مشيت على رِسْلي فكنتُ المقدَّما

ولكنَّ هذا الدهر تأتي صروفه — فتُبْرِم منقوضا وتَنْقُض مُبرما (١)

ونقف مع الفرزدق والتسعين وتوبته.

قالوا: تعلق الفرزدق بأستار الكعبَة في آخر عمره، وهو ينشد:

أطعتُك يا إبليسُ تسعين حجةً — فلما انقضى عمري وتمَّ تمامي

رجعت إلى ربي وأيقنتُ أنني — ملاق لأيام المنون حِمامي

واعتراف الفرزدق في هذا الموقف بأنه كان من جند إبليس ليس الاعتراف الوحيد فيبدو أن هذا الشاعر كان ضائق النفس بما ارتكبه من ذنوب، وكأنه أوشك على القنوط من رحمة الله.

جاء في أخباره أنه التقى والحسن البصري في جنازة (يقال إنها كانت النوار زوج الفرزدق)، فقال الفرزدق للحسن: أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد؟ قال: وما يقولون؟ قال: يقولون: اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشرُّ الناس، فقال

---

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٤٣.

الحسن: كلا. لستُ بخيرهم، ولستَ بشرهم، ولكن ما أعددتَ لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانون سنة، وخمسَ نجائب لا يُدركن، يعنى الصلوات الخمس.

قال المبرد: فيزعم بعض التميمية أنه رُئى فى المنام، فقيل له: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لى، فقيل له: بأى شئ؟ فقال: بالكلمة التى نازعنى فيها الحسن.

قال أبو العباس: ونظر إليه أبو هريرة الدُّوْسىُّ، فقال له: مهما فعلت فقنَّطك الناس فلا تقنط من رحمة الله، ثم نظرا إلى قدمية فقال: إنّ لك قدمين لطيفين فابتغ لهما موقفا صالحا يوم القيامة [(١)].

* * *

وقد سبق بعض الحديث عن أبى الصقر الواسطى، وله فى التسعين شعر، وله – أيضا – مواقف:

ولمّا إلى عشر تسعين صر ... ت، وما لى أب لها قبل صارا
تيقَّنت أنى مستبدل ... بدارى دارا، وبالجار جارا

وقال – وقد حضر عزاء فى صغير وهو ير تعد من الكبر، فتغامز عليه الحاضرون: كيف مات الصغير، وبقى هذا الشيخ فى هذه السّنّ؟!!:

رأيت اعتراضا على الله إذْ ... تُوفى الصغير وعاش الكبيرْ
فقل لابن شهر وقل لابن ألف ... وما بين ذلك: هذا المصيرْ

وهو صاحب الدعاء الذى ينبغى أن يدعو به كل إنسان يخشى أن يُرَدّ إلى أرذل العمر:

يا رب. لا تحيينى إلى زمنٍ ... أكون فيه كلاًّ على أحد
خذ بيدى قبل أن أقول لمن ... ألقاه عند القيام: خذ بيدى

---

(١) رغبة الآمل ج ٢ ص ٧٩ والنصوص فى (الكامل) وفيه: (منذ ستون سنة). قال الشيخ المرصفى: وكان على بن حمزة يقول: الصحيح: منذ ثمانون سنة.

ومما يتّصل بقوله: (فقل لابن شهر . . . البيت) ما حُكى أن شابا لقى شيخا قد طعن فى السِّن، وبدت عليه آثار الهرم، فقال الشاب للشيخ: قد استَحْصَدْتَ يا عماه. قال الشيخ: يا بُنَىَّ. وتُختضَرون [١]!

وكلمة الشيخ بليغة جميلة لما بين الاختضار والاستحصاد من صلة قوية.

وكلمة للحسن البصرى – رحمه الله – تشبهها. قال فى موعظة له: يا معشر الشيوخ. الزرع إذا بلغ ما يُصنع به؟ قالوا: يحصد. يا معشر الشباب. كم من زرع لم يبلغ أدركته آفة [٢].

وكلمة ذكرها القالى فى أماليه: قال رجل لشيخ رآه يمشى: مَن قيدك يا شيخ؟ قال: الذى خلّفته يفتل فى قيدك. (يعنى الدهر [٣]).

* * *

(١) ترجمته فى وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٥١ . تحقيق إحسان عباس. وقد ذكر البيتان الأخيران فى ترجمة أخرى.

(٢) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٢٣ . (٣) ج ١ ص ١١٠ .

المعُمَّـــرون

وحديثهم يطول، وقد كتب عنهم أبو حاتم السجستانى (كتاب المعمّرين) ولعل من المناسب أن نذكر هنا شيئا من أخبارهم وأشعارهم.

والمعمَّر عند العرب من بلغ مائة وعشرين سنة، والذين بلغوا هذه السنّ كثيرون، منهم حسَّان بن ثابت – رضى الله عنه – عاش ستين فى الجاهلية، وستين فى الإسلام.

قالوا: وعاش أكثم بن صيفى ثلاثمائة وثلاثين سنة، وقيل: بل عاش مائة وتسعين سنة، وقال حين بلغ ذلك:

وإن امرءًا قد عاش تسعين حجة ... إلى مائة لم يسأم العيش جاهل

أتت مائتان غير عشرٍ وفائها ... وذلك من مرِّ الليالى قلائل

وعاش المستوغر بن ربيعة ثلاثمائة وثلاثا وثلاثين سنة، وقال فى ذلك:

ولقد سئِمت من الحياة وطولها ... وعمرت من عدد السنين مئينا

مائةً حدتها بعدها مائتان لى ... وعمرت من عدد الشهور سنينا

هل ما بقى إلا كما قد فاتنا ... يوم يمرّ وليلة تحدونا

وعاش أبو عثمان النهدى مائة وثلاثين سنة. قال: أتت علىَّ ثلاثون ومائة سنة ما منّى شئ إلا وقد أنكرته إلا أملى، فإنه يزيد، عاش فى الجاهلية ستين سنة، وحج ستين ما بين حج وعمرة، سكن الكوفة، ولما قُتل الحسين – رضى الله عنه – تحول إلى البصرة وقال: لا أسكن بلدا قتل فيه ابن بنت رسول الله ﷺ (١).

قالوا: وكان من أطول من كان قبل الإسلام عمرا ربيع بن صبيع بن وهب ابن بغيض بن مالك بن سعد بن عدىّ بن فزارة.

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٧٧.

عاش أربعين وثلاثمائة سنة، ولم يُسْلم، وقال وقدل بلغ مائتى سنة وأربعين سنة:

أصبح منى الشباب قد حَسَرا إنْ ينأ عنى فقد ثوى عُصُرا
ودَّعنا قبل أن نودِّعه لما قضى من جِماعنا وطرا
هانذا آمل الخلود وقد أدرك عقلى ومولدى حُجُرا
أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إنْ نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدى، وأخشى الرياح والمطرا

وهذان البيتان الأخيران من شواهد النحويين.

ومن أبياته المشهورة التى تدور كثيرا على الألسنة:

إذا جاء الشتاء فأدفئونى فإن الشيخ يهدمه الشتاء
إذا عاش الفتى مائتان عاما فقد أودى المسَرَّة والفتاء

* * *

قالوا: وعاش جليلة بن كعب بن الحارث بن معاوية بن وائل تسعين ومائة سنة فيما ذكر ابن الكلبى عن الوليد بن عبد الله الجعفى، وقال:

وإن امرءاً قد عاش تسعين حجة إلى مائة يرجو الفلاح لجاهل
يؤمل أن يبقى وقد مات ذو النّدى أبوك، وأودى ذو الحمائل وائل
وجار الصفا والأرقمان كلاهما فكيف ترجى العيش أمك هابل

* * *

ومن عجائب المعمَّرين أن ضُبَيرة بن سعد بن عمر و بن هُصَيْص عاش مائتى سنة وعشرين سنة، ولم يشِب شيبة قط، وأدرك الإسلام، واختلف فى إسلامه.

وحين مات قالت نائحته:

من يأمن الحدَثان بعد ضُبَـ يْرة السهمى ماتا
سبقت منيته المشيـ ـب، وكان ميتته افتلاتا

ومما يذكر هنا أن أبا تمام وخطه الشيب، وهو فى السادسة والعشرين، وقال فى ذلك:

أبدت أسىً أن رأتنى مُخْلَس القُصُب ... وآل ما كان من عُجب إلى عجب [1]

ست وعشرون تدعونى فأتبعها ... إلى المشيب فلم تظلم ولم تُحب

فلا يؤرقك إيماض القتير به ... فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب

* * *

وإذا كان الشيب هنا ابتسام الرأى والأدب فهو فى موضع آخر شيب الفؤاد:

شاب رأسى وما وجدت مشيب الرأ ... س إلا من فضل شيب الفؤاد

وكذلك القلوب فى كل بؤس ... ونعيم طلائع الأجساد

* * *

وقد أنصف أبو العلاء فى قوله:

ارجع إلى السِّنِّ وانظر ما تقا دمها ... فاحكم عليه ولا تحكم على الشَّعَر

فكم ثلاثين حولا شيبت ومضت ... ستون والشيب فيها غيرُ مُسْتَعِر

* * *

ومن المعمَّرين عُبيد بن شَرْية الجرهمى.

وفد على معاوية فكان مما سأله عنه: كم أتى عليك، قال: الأربعون ومائتا سنة. قال: فكيف رأيت الدهر؟ قال: سُنَيَّات بلاء، وسنيات رخاء، ويوم شبيه

---

(١) قال الآمدى - بعد إيراد الأبيات -: (رأس مُخلَس وخليس إذا اختلط به الشيب، والقُصُب جمع قُصَبَة، وهى خصلة الشعر، و(آل ما كان من عجب إلى عجب بى) ومحبة (إلى عجب) أى تعجب من شيبى.

وقال المحقق الأستاذ سيد صقر - رحمه الله -: (وفى شرح التبريزى يقول: تدعونى إلى المشيب ستٌ وعشرون سنة فأجيبها، ولم تدعنى إلى الشيب فى غير وقته فتكون ظالمة لى، جائرة علىَّ، فإنى قاسيت من الدهر ما لو شبت معه فى المهد لم ينكر) - الموازنة ٢ / ٢١٢ - والحَوب: الإثم.

بيوم، وليلة شبيهة بليلة. يهلك والد. ويخلف مولود، فلولا الهالك لامتلأت الدنيا، ولولا المولود لم يبق أحد، وأنشد:

وما الدهر إلاصدر يوم وليلة ويولد مولود ويفقد فاقد
وساعٍ لرزق ليس يدرك قوته ومُهدًى إليه رزقه وهو قاعد

ومن الأعاجيب - وما أكثرها - الطفل المعجزة الذى ظهرت لحيته فى الرابعة، وتوفى فى السابعة، ظهر هذا الخبر فى الصحف فى أوائل الثلاثينات، وقد قلت فيه:

متى تطلع الدنيا التى قد أريتنا نموذجها الميمون في عالم الدُّنا
تعالى الذى سواك فينا حقيقته يَضلُّ مداها العبقرى خيالنا
أتانا على هذا النظام الذى نرى بآخر غضٍّ لم يتح قبله لنا
وأبدى على دنياك دنيا جديدة منمقة الأحلام رائعة السَّنا
يروعك ما أضغى عليك وإنه لَبدْعُ كما قد راع نفسك راعنا
لقد خلطوا بين المجدّد فى الورى وأنت الذى جددت فيه حياتنا
تبرمت بالدنيا وأنت ابن سبعة فكيف لو امتدت حياتك مثلنا؟!
وقضَّيت أيام الطفولة اربعا ورب فتىً قضى ثمانين أرعنا
ولاحت سمات الشيب فى ميعة الصبا فهل كنت حقا أشيب النفس موهنا؟!
وآمنت بالعدل الإلهى فى الورى فهل كنت بالعدل الإناسىّ مؤمنا ؟

* * *

عجائب الـزمن

وما أكثرها، بل لعلها لا تكاد تعدُّ أو تُحصى، وقد عبر عن ذلك أبو تمام فى قوله:

على أنها الأيام قد صِرْنَ كلُّها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وتبعه الحسين بن حجاج، فقال:

عجبتُ من الزمان وأىُّ شئ عجيب لا أراه من الزمان

إذن هى كثيرة، واستقصاؤها محال، فلتكن النماذج.

من ذلك ما يشير إليه أبو العلاء:

أرى الأيام تفعل كل نُكر فما أنا فى العجائب مستزيد

أليس قريشكم قتلت حسينا وكان على خلافتكم يزيد

قريشكم: هكذا، أصحاب الحلم والوقار والسيادة، والعقول الراجحة، يقتلون (حُسينا) ابن بنْت رسول الله – ﷺ – ويدينون ليزيد بن معاوية، وهو متمكن من خلافتهم، وهو من هو ، أليس من بنى أمية الذين اغتصبوا الخلافة من آل البيت؟!.

وقد رُوى أن حذيفة بن اليمان وسلمان الفارسى – رضى الله عنهما – تذاكرا أمر الدنيا، فقال سلمان: ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غُنَيْمات الغامدى سرير كسرى.

وكان أعرابى من غامد يرعى شُوَيْهات له، فإذا كان الليل صيرها إلى عرصة إيوان كسري، وفى العرصة سرير رُخام كان يجلس عليه كسرى، فتصعد غنيمات الغامدى إلى ذلك السرير [1].

قالوا: ولما قتل الحسين بن على – رضى الله عنهما – جئ برأسه إلى يزيد بن معاوية، وكان على الغداء، ثم دارت الأيام وقتل عبيد الله بن زياد وبُعث برأسه

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٤٨، وعيون الأخبار ج ٢ ص ٣٧١.

إلى يزيد، وكان يتغدَّى، فقال سبحان الله. جئ برأس الحسين وأنا أتغدى، وبرأس قاتله وأنا أتغدى [١].

وللشهاب محمود:

يا عامر الدنيا على شيبه فيك أعاجيب لِمَنْ يعجب

ما عذرُ من يعمُر بُنيانه وعمره مُسْتَهَدَمٌ يخرب [٢]

وشبيه بهذا قول الآخر:

عجبت لتفريس نوى النخل بعدما طلعتُ على الستين أو كِدْتُ أفعل

وأدركت مِلْءَ الأرض ناسًا فأصبحوا كأهل ديارٍ أدلجوا فتحملوا

وما الناس إلا رفقة قد تحمَّلوا وأخرى تقضى حالها ثم ترحل

ومع ما يبدو فى هذين القولين من العجائب فالصحيح فى هذه القضية ما أجاب به شيخ تقدمت به السِّنُّ ما أجاب به كسرى.

قالوا: مر كسرى بشيخ كبير يغرس فَسيلاً، فقال له: يا هذا.، كم أتى عليك من العمر؟ قال: ثمانون سنة. قال: أفتغرس فسيلا بعد الثمانين؟! فقال: أيها الملك. لو اتكل الآباء لضاع الأبناء [٣].

ومن العجائب التى تشاهد فى كل جيل، وفى كل قبيل ما أشار إليه هذا الشاعر:

إذا كان الزمان زمان تيْم وعُكْلٍ فالسَّلام على الزمان

زمان صار فيه الصدرُ عجزا وصار الزُّجُّ قدَّامَ السِّنان

وقد ذكر الجاحظ أبياتا ولم ينْسُبْها تشير إلى هذا المعنى [٤]:

ما أعجب الدهر فى تصرفه والدهر لا تنقضى عجائبُهْ

يبسط آمالنا فنبسطها ودون آمالنا نوائبه

(١) لم يباشر عبيد الله بن زياد قتل الحسين بنفسه، ولكنه قُتل فى ولايته، وبأمره.

(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٣٢٢. (٣) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٣٠٤.

(٤) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٠٤.

وكم رأينا في الدهر من أسَدٍ بالت على رأسه ثعالبهْ

* * *

وشبيه بهذا المعنى ما جاء في أبيات للبحترى:

فيا ويح الحوادث كيف تعطى شقِيَّ القوم من حظ السعيد

وكيف تجور إن حكمت بحكم فتحمل للغَوِيِّ على الرشيد

وما برحت صروف الدهر حتى أرتنا الأسد قتلى للقرود

قال الآمدى: وهذا مما لا مزيد على حسنه وجودته لفظا ومعنى [1].

* * *

(١) الموازنة ج ٢ ص ٢٣٧.

الحنين إلى الماضـــى

لعل من أخص الطبائع البشرية الحنين إلى الماضى مهما كان فيه من آلام ومتاعب، فما هو إلا أن يصير الإنسان فى الحاضر فيقاسى منه إلا حنَّ إلى الماضى، وترحم على أيامه، وربما كان حاضره خيرا من ماضيه، ولكنها الطبيعة البشرية التى تحِنُّ إلى ما فات، وإلى ما لا يمكن رجوعه، وتصوره دائما بصورة الحلم اللطيف الذى انقضى، وتتمنى لو عاد هذا الحلم، وأكبر الظن أنه لو عاد – ولن يعود – لشكت منه النفوس كما تشكو من حاضرها، وكما شكت منه يوم كان حاضرا.

وقد ترد هذا المعنى كثيرا على ألسنة الشعراء – كما يقول الحصرى فى تعليقه على بيت لأبى العتاهية مشهور كثير الدوران على الألسنة:

كم زمان بكيت فيه فلما ... صِرْتُ فى غيره بكيت عليه

ويقول الحصرى: وقع اضطراب فى قائل هذا البيت.

ومن المشهور فى هذا المعنى أيضا قول أبى تمام:

لم أبك فى زمن لم أرض خلته ... إلا بكيت عليه حين ينصرم

ويقول أبو حفص الشطرنجى شاعر عُلَيَّةَ بنت المهدى:

إذا سرها شئ وفيه مساءتى ... قضيتُ لها فيما تريد على نفسى

وما مرّ يوم أرتجى فيه راحتى ... فأخبره إلا بكيت على أمس [1]

ومشهور أيضا قول معن بن أوس أو سعيد بن حميد:

لم أبْكِ من زمن ذممت صروفه ... إلا بكيت عليه حين يزول

والشعراء يصفون الأيام التى مضت بأنها كانت أيام سعادة، وأنها مرت سِراعا، ويأسفون أشد الأسف على تقضيها سريعات:

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٠.

لله أيام تقضّت لنا ... ما كان أطيبها وأحلاها

مرت فلم يبق لنا بعدها ... شئ سوى أنا مُنحناها

وابن طبا طبا [(١)] يقول :

لله أيام السرور كأنما ... كانت لسرعة مرِّها أحلاما

يا يومنا المفقود خذ من عمرنا ... عامًا، وردَّ من الصِّبا أياما

كذلك يقول ابن النبية :

سُقْيا لأيامنا التى سلفت ... كانت بطيب الحياة مقترنهْ

لو بيع يوم منها وكيف به ... كنتُ بعمرى مسترخصا ثمنه [(٢)]

ويضيف محمود بن حسن الوراق [ت ٢٣٠ هـ] فى خلافة المعتصم إلى بكاء الماضى من الزمن الحنّين إلي الماضين من الأصدقاء .

من إنْ بكيت زمانا ... إلا بكيت عليه

ولا ذممت صديقا ... إلا رجعت إليه [(٣)]

وفي الأصدقاء يقول أحمد بن فارس :

عتبت عليه حين ساء صنيعه ... وآليت لا أمسيت طوع يَديْه

فلما خبرت الناس خُبر مُجرِّبٍ ... ولم أر خيرا منه عدت إليه [(٤)]

ومثل ذلك قول نهار بن تَوْسعة :

عتبت على سَلْم فلما فقدته ... وجربت أقواما بكيت على سلْم

ولكن ، هل تعود الأيام الماضيات ؟ أحد الأجوبة عند البحترى :

لله أيامنا ما كان أحسنَها ... لو أنَّ دهرا تولى ذاهبا وقفا

لا تكذبنَّ فما الدنيا براجعة ... مافات من لذة الدنيا وما سلفا [(٥)]

---

(١) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل، ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – كان نقيب الطالبين بمصر، وله شعر مليح فى الزهد والغزل وغيرها. توفى سنة ٣٤٥ هـ.

(٢) أنوار الربيع جـ ٥ . ص ١٤٢ .

(٣) فوات الوفَيات جـ ٢ . ص ٥٦٢ .

(٤) يتيمة الدهر جـ ٣ . ص ٤٠٦ .

(٥) الموازنة جـ ٢ . ص ٨٨ .

وعند محمد بن محمد بن عربى ابن محيى الدين بن عربى :

أليلةوصل كنتِ أم ليلة القـدر ... سقى عهدك الماضى سلاف من الخمر

لئن كان ذاك العهد ولّى ولم يعد ... فـإنى له . إنّى له دائم الذكـر

آمل أن الدهر يسـخـو بردّه ... فوا أسفا . ماذاك من شيم الدهر [1]

ويصرح أبو العلاء بالسِّرّ الذى من أجله يبكى الإنسان ماضيه :

وقد تعوَّضت عن كلٍّ بمشبهه ... فما وجدت لأيام الصِّبا عِوَضا

ولكن . هل كان لأبى العلاء أيام صِبًا يبكى عليها ويطلب لها عوضا .
وهو يقول :

إذا الفتى ذم عيشًا فى شبيبته ... فما يقول إذا الشباب مضى

بل إن هذا البائس فقد الأمل فى الحاضر والمستقبل ، وملَّ الحياة برمتَّها :

وقد غَرِضت من الدنيا فهل زمنى ... مُعْطٍ حياتى لِغِرٍّ بعدُ ما غرِضا

ولعل بعض أسباب هذا التبرم بالحياة ما جاء فى قوله :

جرَّبت دهرى وأهليه فما تركت ... لِيَ التجارب فى ودٍّ امرئ غرضا

ولكن ما بال الإنسان الذي يبكى على الأيام التي سلفت يستعجل مرور الزمن ، ويُسر بذلك ، مع أنه يُدنى من الأجل ، ويَنْسى ما قاله شوقى ، وأمثاله : (جزءٌ من عمرك حضرت وفاته ، وقبرت بيديك رفاته ، لم تُرق عليه عَبْرة ، ولم تُشيِّعه بالتفاته) .

وقد كثر القول في السرور بمرور الأيام ، واشتهر فيه بيت يسْتِشهد به النحويون ، ويردِّده الكبار والصغار :

يَســرُّ المرءَ ما ذهب الليالى ... وكـان ذهابُهن له ذهابا

ويبدو أن الأصل لهذا البيت قول رجل من الأعراب :

والمرء يفـرح بالأيام يقطعها ... وكلُّ يوم مضى يُدنى مِن الأجل

---

(١) فوات الوفَيات جـ ٢ . ص ٣٢٩ .

فهو السرور والفرح عند القدماء ، أما المحدثون فيستعجلون الأيام لأسباب أخرى ، منها ما جاء في قول الشاعر المحسن العبد الله :

إذا ما أطل الشهر أبغى زواله ... لِكىّ أتقاضى راتبى آخر الشهر

كأنى أبيعُ العمرَ فيما أناله ... فيابؤسَ عيشٍ بعتُ من أجله عمرى

رغبةٌ في سرعة مرور الأيام ، وبكاء عليها بعد ذهابها ، وحنين إلي أن تعود، فيا حيرة الإنسان ، وإذن فما النجاة ؟ النجاة عند الشاعر الغَزّى وأمثاله :

يقول أبو إسحاق الغزى [1] :

ما مضى فات والمؤمل غيْبٌ ... ولك الساعة التى أنت فيها

وهو بيت سائر مشهور ، خفيف على الألسنة .

ويوضح شاعر آخر السِّرَّ فيما نصح به الغَزِّى [1] :

تمَّتْع من الدنيا بساعتك التى ... ظفرتَ بها ما لم تعقْك العوائق

فما يومُك الماضى عليكَ براجع ... ولا يومُك الآتى به أنت واثق

والاتفاق واضح بين قول هذا الشاعر وقول عمر الخيام :

لا تشْغل البالَ بماضى الزمانْ ... ولا بآتي العيْشِ قبل الأوانْ

واغْنمْ من الحاضر لذاته ... فليس في طبع الليالى الأمانْ

وقديما ذهب أوس بن حجر مذهب هؤلاء ولكنه وجه همته إلي الغد وترك الأمس ، وكأنه رأى أن لا حاجة به إلى العودة للوراء ، ولا للنّاس . قال :

ولستُ بخابئٍ أبداً طعامًا ... حِذار غدٍ ، لكل غدٍ طعام

وهي نظرة غريبة من جاهلى يقاتل لأجلِ اليوم الحاضر ولأجل الغد البعيد .

ولكنها طبيعية من إسلامى زاهد في الحياة :

من كان يُعط علما فى بقاء غدٍ ... ماذا تفكره فى رزق بعدِ غد

---

(١) ولد بغزة ، وتوفي فى بلخ ، ويُنسبُ كثيرٌ من شعره إلى الأبِيوَرْدى ، وله ديوان مخطوط .

وإذا كانت هذه النظرة لا تتفق مع الكلمة الحكيمة المشهورة : (اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدا ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدا) .

وقد شهرت هذه الكلمة بأنها حديث نبوى شريف ، ولكن الجاحظ ينسبها فى كتابه (البخلاء) لعمرو بن العاص [١] .

* * *

ويذهب الزهاد ،والمتورعون فى الأمس واليوم والغد مذهبا آخر يدل على رضاهم وقناعتهم ، وحسن صبرهم على مصاعب العيش ، ومتاعب الحياة ، ومشاقّ الحرمان ، وعلى صادق يقينهم بما ينتظرهم فى الآخرة من نعيم :

أبو حازم الأعرج من فضلاء التابعين ، وله مقامات حميدة مع الخلفاء ، وكلام محفوظ يدل على عقله وفضله .

من كلامه : (إنما بينى وبين الملوك يوم واحد : أما أمس فلا يجدون لذته، وأنا وهم من غد على وجل ، وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم ؟!!

ومن قول الفضيل بن عياض بن مسعود التيمى اليربوعى الخراسانى ، المجاور بحرم الله ، وقد كان شاطرا يقطع الطريق ، ثم تاب ولزم الحرم . توفي بمكة المكرمة سنة ١٨٧ هـ :

(يا ابن آدم . إنما يفضلك الغنيُّ بيومك . أمس قد خلا ، وغد لم يأت ، فإن صبرت يومك أحمدت أمرك ، وقويت على عدوك ، وإنْ عجزت يومك أذممت أمرك ، وضُعفت عن عدوك ، وإنَّ الصبر يورث البرء ، وإن الجزع يورث السقم ، وبالسقم يكون الموت ، وبالبرء تكون الحياة) [٢]

* * *

ونختم القول فى الحنين إلي الشباب ، والأسف عليه بقول أستاذنا الشيخ عبد الجواد رمضان – رحمه الله تعالى – فى مطلع مدحة نبوية [٣] :

---

(١) ص ٢٥ . رسالة سهل بن هارون .   (٢) البيان والتبيين جـ٣ . ص ١٣٩ .

(٣) مجلة الأزهر – المجلد الثانى والعشرين ، والعدد الثالث من المجلد الرابع والستين .

يا لهف نفسي على شباب — من المنى والحياة أحلى
الظرف والقصف والتصابى — يوم تولى الشباب ولّى
عوجوا على ربعه ركابى — أحط من ذى الهموم ثقلاً

أسبح فى أفقه الرحيب — وأنشق الترب في المغانى
وأملأ الجو بالنحيب — أسًى وحزنا على زمانى

* * *

الشكوى من الشيب

أبو العباس أحمد بن محمد الدارمى المصِّيصى المعروف بالنامى .

كان من الشعراء المفلقين ، وخواصٍّ مداح سيف الدولة ، وكان عنده تلْو المتنبى في المنزلة والرتبة ، وكان فاضلا أديبا بارعا ، عارفا باللغة والأدب .

حكى أبو الخطاب بن عوْن الحريرى النَّحوى الشاعر أنه دخل على أبى العباس النامى ، قال : فوجدته جالسًا ، ورأسه كالثغامة بياضا ، وفيه شعرة واحدة سوداء فقلت له: يا سيدى . فى رأسك شعرة واحدة سوداء ، فقال : نعم. هذه بقية شبابى ، وأنا أفرح بها ، ولى فيها شعر ، فقلت : أنْشدْنيه ، فأنشدنى[1] :

رأيتُ فى الرأس شعرةً بَقيتْ ... سوداءَ تهوى العيونُ رؤيتها
فقلت للْبيضِ لا تروعُها ... باللهِ إلا رحمت غُربتها
فقلَّ لُبْث السوداء فى وطن ... تكون فيه البيضاء ضرتَها

ثم قال : يا أبا الخطاب . بيضاءُ واحدة تروع ألف سوداءَ ، فكيف حال سوداء بين ألف بيضاء ؟!!

[توفي النامى سنة ٣٩٩ هـ ، وعمره تسعون سنة] .

الشعرة البيضاء

وإذا كان النامى ركَّز كل تفكيره على شعرة سوداء عاشت زمَنًا غريبة بين آلاف الشعرات البيض ، فإن كاتبنا مصطفى لطفى المنفلوطى لم يصبر حتى يصير رأسه كالثغامة ، بل بادر أول شعرة بيضاء غزَتْ شعره ، فقال يخاطبها :

أيتها الشعرة البيضاء ما رأيت بياضًا أشبه بسواد من بياضك ، ولا نوراً أقرب إلي الظلمة من نورك . لقد أبغضت من أجلك كلَّ بياض حتى بياض القمر ،

---

(١) وفيات الأعيان جـ١ . ص ١٠٨ وقد نسب الأبيات في ص ١٩٤ جـ ٤ لابن العميد . والشطر الأول هنا : (رأيت فى الوجه طاقة بقيت) ، وفى الشطر الرابع : (إلا ما رحمت) بزيادة (ما) .

وكل نور حتي نور البصر ، وأحببت فيك كلَّ سواد حتى سواد الغِربان ، وكل ظلام حتي ظلام الوجدان .

ثم يعتذر عن إساءته لها ، ويرحب بها ، قال لأنها رسول الموت الذي ما زال يطلبه ، وأنه لا يحمل لها حقدا ، وكيف وهو لم ينعم بشبابه فيحزن على ذهابه ؟!

وقال إن كل ما يعدُّه عليها من الذنوب أنها طليعة الموت ، ولكن الموت هو الذى يخلِّصه من منظر هذا العالم المملوء بالشرور والآثام .

ولا أظن إلا أن المنفلوطى كان شاعرا حالما متشائماً أكثر منه كاتبا متعقّلا ، فقد صدق فى عتابه الشعرة البيضاء ، ولكن ما أظنه كان جادًّا فيما اعتذر به إليها .

حتي فى إساءته لها -كما يقول - لم يكن جادا كلّ الجد ، وإلا فهل صحيح أنه أبغض من أجلها كلَّ نور حتى نور البصر ؟ إنها كلمة لا يقُولها إلا شاعر مولَع بالمبالغات المرذولة .

وقد شُهر الشريف المرتضَى بكثرة شعره في الشيب وذمِّه ، وألّف كتابا خاصًّا سماه : (الشهاب فى الشيب والشباب) ، ولم يتح لى الاطلاع على هذا الكتاب ، وهو مطبوع في الآستانة سنة ١٣٠٢ هـ .

وكما قلت ليس الغرض فى هذه الفصول الاستقصاء ، ولا القرب منه ، فهى أبواب واسعة يصعب الإلمام بكل ما قيل فيها ، وإنما هو الأنموذج والمثل .

من ألطف ما قيل فى ذلك أبيات أبى تمام :

كل داءٍ يُرجى الدواءُ له	إلا الفظيعين : مِيتةً ، ومشيبا
يا نسيب الثغام ذنبك أبقى	حسناتى عند الحسان ذنوبا
ولئن عِبْن ما رأيته لقد أنكـ	ـرن مُسْتنكرًا وعِبْن مَعِيبا
لو رأى الله أن فى الشيب خيرا	جاورته الأبرارُ فى الخلد شيبا

قال الآمدى : وهذا البيت الأخير من شعره الجيد المشهور . وجميل – أيضًا – قول البحترى :

راعَنى ما يروع من وافد الشْيـ ـب طروقا ورابنى ما يَرِيبُ
شعراتٌ سودٌ إذا حُلْن بيضا حال عن وُصْلة المحب الحبيبُ
مرَّ بعد السواد ما كان يحلو مجتناه من عيشنا ويطيب[1]

ولعبد الله بن محمد بن يوسف بن زمرك الشاعر الأندلسى :

وليلةِ إذ ولّى الحجيج إلي منى وفَتْ لى المنى بما شئت من قصد
فقضيت منها فوق ما أحبب المنى وبُردُ عفافى صانه الله من برد
غفرت لدهرى بعدها كل ما جنى سوى ما جنى وفدُ المشيب على فودى

والشيب يقوس الظهر ، ويذكر بالشباب ، ويطيل الأسف على ذهابه ، أبو زكريا يحيى بن سعيد الأنصارى المعروف بابن الدهان النحوى ، صاحب التصانيف الكثيرة المفيدة في النحو له معنى جيد بديع جاء في قوله[2] :

وعهدى بالصِّبا زمنًا وقدِّى حكى ألف ابنِ مُقلْة في الكتاب
فصِرت الآن منحَنِيا كأنى أفتِّش في التراب على شبابى

* * *

وكأنى بأكثر الشعراء لا يضيقون بالشيب ، ولا يأسفون على ذهاب الشباب إلا لانصراف الغوانى عنهم ، ولنقصهم في أنظارهن .

وقديما قال عبدة بن الطبيب[3] :

فإن تسألونى بالنساء فإننى خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودِّهن نصيب

---

(١) الموازنة جـ ٢ . ص ٢٠٣ .
(٢) التعريف لابن خلدون . ص ٢٦٥ .
(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ . ص ١٢٦ .

ولا شك أن أبا تمام أنصف الحسان حين اعترف أنهن عبن معيبا ، فهن لم يظلمنه حينما بدا شعره كالثغام ، ويشير المتنبى إلي ما ذهب إليه أبو تمام ، ويبين السبب الذى من أجله كرهن الشيب ، فهنَّ يردن من الفتيان ما كان يشبههن شبابا وفتاء ونضارة .

أحلى الرجال من النساء مواقعا من كان أشبههم بهن خدوداْ

ويرى الأمدى أن أبا تمام أخذ معنى بيته من الأعشى إذ يقول :

وأرى الغواني لا يواصلن امرءاً فقَد الشباب وقد يصلن الأمردا

وبيت المتنبى قريب أيضًا من بيتيهما .

ولكن أين بيت الأعشى من بيت أبي تمام ؟

إن الحلاوة والرقة ، والوفاء بالمعنى تزين كلها بيت أبى تمام ، وكذلك الأمر فى بيت المتنبى فهو – أيضاً – أحلى وأرق من بيت الأعشى ، والضعف يبدو فى قوله : (وقد يصلن الأمردا) – ومع ذلك فللأعشى فضل السبق .

ويقول البحترى :

وحُمِّلت عندك ذنب المشيـ ـب حتي كأنى ابتدعت المشيبا

ومَن يطّلع شـرف الأربعيـ ـن يلاق من الشيب زَوْرا غريبا

يقول الآمدى : (عهدى بالشيوخ من أهل العلم بالشعر إذا تذاكروا ما قيل فى الشيب لا يقدمون على قوله : (وحملت عندك ذنب المشيب) [1] .

وللشعراء فى مثل هذا المعنى الكثير الرائع .

ولعل من ظلم الرجال أنهم يألمون ، ويعتبون ، ويلومون النساء لانصرافهن عمن فقد الشباب ، وهم أشد زهدا فى المرأة إذا شاب قرناها من زهدها فيهم .

حكوا أن رجلا كان يسير علي جسر بغداد ، فلقى امرأة ، فحاول أن يغازلها ، فقالت له : إن برأسي بعض الشيب ، فتركها ، وأغذ السير ،

---

(١) الموازنة جـ٢ . ص ٢٠٧ ويخيل إلىّ أن كلمة (شيئا) بعد هذه العبارة سقطت من الطابع .

فاستوقفته، ثم كشفت عن شعرها ، وقالت : والله . ما فى رأسى شعرة واحدة بيضاء ، ولكنا نكره منكم ما تكرهون منا .

وقد جاء هذا المعنى منظوما فى قول منصور الغمرى :

كرهن من الشيب الذى لو رأيته ... بهن رأيت الطرف عنهن أزورا

وفى قول الآخر :

أرى شيب الرجال من الغوانى ... بموقع شيبهن من الرجال

ومن جيد ما أعجبنى فى معنى انصراف الغوانى عن الشيب وصاحبه :

تقول لما رأتْ مَشيبى ... بدا وعندى له انقباض

لا ترجُ عطفا عليكَ منى ... سوَّدَ ما بْيننا البياض !!

فهذا الشطر الأخير من بديع الشعر ، وقد زاده الطباق المطبوع حسنا .

وقريب من هذا قول أستاذنا الشيخ عبد الجواد رمضان فى صدر مدحة نبوية [١] – رحم الله شيخنا – :

يا خجلتا من بياض شيبى ... شوَّه وجهي لدَى الغوانى

فلا دموعى ولا نسيبى ... ولا ولوعى ولا هوانى

الدفاع عن الشيب

خير ما يقال في الدفاع عنه قول النبى - ﷺ - : « من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة » .

وبالمناسبة . قيل للنبى – ﷺ – : عجَّل عليك الشيب يا رسول الله ، فقال : « شيبتنى هود وأخواتها » .

قيل عن أخوات هود : هى : عبَس والمرسلات والنازعات .

وقيل لعبد الملك بن مروان : عجَّل عليك الشيب يا أمير المؤمنين . قال : شيبنى ارتقاء المنابر ، وتوقُّع اللحن .

---

(١) مجلة الأزهر – المجلد الثاني والعشرين ، والعدد الثالث من المجلد الرابع والستين .

ومما قيل فى مدح الشيب ما حُكى عن أحد الحكماء أنه تأمل شيبه ، فقال : مرحبا بزهرة الحكمة ، ويُمْن الهدى ، ومقدمة العفة ، ولباس التقوى .

وقد حاول بعض الشعراء أن يحسّنَ الشيب ، ويرفع من قَدْرِه ، ويذهب فى الخيال ما يشاء ، ويدَّعى له الفضائل ، ويستجلب له التشبيهات المونقة .

فهو عند البحترى : الأقاحى التى لا تونق الرياض إلا بها ، وبياض العيون التى لا يكون سوادها مرموقا إلا به ، وهو النجوم التى لا يبهى الليل بغيرها ، وهو ليس بعار لأنه جلاء الشباب ، وبياضه أفضل من السواد ، وكيف لا :

وبياض البازىِّ أصدق حُسْنا   لو تأملت من سواد الغراب

ويعلق الشيخ عبد القاهر بظرفه ولطفه على قول البحترى هذا ، فيقول : (وليس إذا كان البياض فى البازى آنق فى العين ، وأخلق بالحسن من السَّواد فى الغراب، وجب لذلك أن لا يذم الشيب ، ولا تنفر منه طباع ذوى الألباب ، لأنه ليس الذنب كله لتحول الصِّبغ ، وتبدل اللون ، ولا أتتْ الغوانى ما أنت من الصدِّ والإعراض لمجرَّد البياض ، فإنهن يَريْنه فى قُباطىّ مصر فيأنسن ، وفي أنوار الروض وأوراق النرجس الغضِّ فلا يعبن ، فما أنكرْن ابيضاض شعر الفتى لنفس اللون وذاته ، بل لذهاب بهجاته ، وإدباره فى حياته ، وإنك لترى الصُّفرة الخالصة في أوراق الأشجار المتناثرة عند الخريف وإقبال الشتاء ، وهبوب الشمال فتكرهها، وتنفر منها ، وتراها بعينها فى إقبال الربيع في الزهر المتفتق ، وفيما ينشئه ويشيه من الديباج المؤنق فتجد نفسك على خلاف تلك القضية ، وتمتلئ من الأريحية .

ذلك لأنك رأيت اللون حيث النّماء والزيادة ، والحياة المستفادة ، وحيث أبشرت أرواح الرياحين ، وبشرت أنواع التحاسين ، ورأيته فى الوقت الآخر حين ولَّت السُّعود ، واقشعر العود ، وذهبت البشاشة والبِشر ، وجاء العُبوس والعسر .

هذا .. ولو عدم البازى فضيلة أنه جارح ، وأنه من عَتيق الطير لم تجد لبياضه الحسن الذي تراه ، ولم يكن للمحتجِّ به على من ينكر الشيب ويذمّه ما

تراه من الاستظهار ، كما أنه لولا ما يهدى إليك المسك من رياه التى تتطلع إليها الأرواح ، وتهشُّ لها النفوس وترتاح لضعفت حجة المتعلق به في تفضيل الشباب، وكما لم تكن العلة في كراهة الشيب بياضه ، ولم يكن هو الذى غض عنه الأبصار ، ومنحه العيب والإنكار ، كذلك لم يحسن سواد الشعر فى العيون لكونه سوادا فقط ، بل لأنك رأيت رونق الشباب ونضارته ، وبهجته وطلاوته ، ورأيت بريقه وبصيصه يَعدانكَ الإقبال ، ويُريانك الاقتبال ، ويحضرانك الثقة بالبقاء ، ويبعدان عنك الخوفَ من الفناء) .

وبعد أن يفيض عبد القاهر في هذا المعنى يعتذر لهؤلاء الشعراء ، فيقول : (ولا يؤاخذ الشاعر بأن يصحح كون ما جعله أصلا وعلة كما ادّعاه فيما يُبرم وينقُض من قضية ، وأن يأتى على ما صيّره قاعدة وأساساً ببَيِّنة عقلية ، بل تُسَلم مقدمته التي اعتمدها بلا بينة كتسليمنا أن عائب الشيب لم ينكر منه إلا لونه ، وتناسينا سائر المعانى التى كره من أجلها وعيب)[1] .

* * *

ويقف المعرى يدافع عن الشيب ، ويذم الشباب :

خبرينى ماذا كرهت من الشيـــ	ـــب فلا علم لى بذنب المشيب
أضــيــاء النهــار أم وضح اللؤ	لؤ أم كـونه كـثـغـر الحـبـيـب
واذكرى لى فضل الشباب وما	يجــمع من منظر يروق وطيب
غــدره بالخليل أم حــبــه للغيِّ	أم كــــونه كــــدهر الأديب

وتشبيه أبى العلاء سواد الشعر بدهر الأديب تشبيه رائع .

والذي يكاد فى مرتبة الاعتقاد أن احتجاج أبي العلاء للشيب من باب التطرف لا غير ، فما حمد الرجل شبابه ولا حمد شيبه – كما سبق أن أشرت – بذكر أبياته الضادية ، وكيف نعتقد غير ذلك وتمنيه الموت يشيع فى شعره .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٤٧ وما بعدها .

لقد وجد الدنيا كما يقول – الطريق إلى المنايا ، فهو يستعجلها :

وجــــدناك الطريق إلى المنايا وقد طال المدى فمتى نجوز ؟

وما أشبهه فى أبياته الضادية بأبى عثمان [1] الخالدى في أبياته الرائية :

ولست أبكى لشيب قد بُليت به يبكى على العيش من يأسى على العمر
كن من صديقك لا من غيره حذِراً إن كان ينجيك منه شدةُ الحذر
مـا أطمئن إلي خَلْق فـأخـبَـره إلا تكشف لى عن سوء مُختبَر
وما شكرت زمانى وهْو يُصعدنى فكيف أشكره فى حال مُنَحدرى

والبيت الأخير من أبيات الخالدى متفق مع قول الطغرائى :

لم أرتض العيش والأيام مقبلة فكيف أرضى وقد ولت على عجل ؟!

وكلاهما – ومعهما أبو العلاء – ناظر إلى قول البحترى :

ولم أرتض الدنيا أوان مجيئها فكيف ارتضائِها أوان ذهابها ؟!

* * *

ولم يفت أبا العلاء أن يدون ظاهرة عاش فيها أكثر من ابيضت ذوائبهم . ذلك أن الشباب يدعو إلى الإثم ، والشيب ينهى عنه :

أيها الشيب لا يريبك من كفىَّ (م) يـقـصٌ ، ولا يـواريـك خـطْـر [2]
إن نهيت النفس اللجوج عن الإثم (م) وطابت فـــإنما أنت عِطر

ولكن بعض الناس – كما يقول ، وكما هو واقع أيضًا – لا يزجرهم الشيب، ولا يردهم عن غواياتهم :

وليس عندهمُ دين ولا نُسُك فلا تغرك أيد تحمل السُّبحا

---

[1] هو سعيد بن هاشم الخالدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ ، والأبيات في (أنوار الربيع) جـ ٣ . ص ٢٣٤ .

[2] الخطر – بكسر الخاء – الخضاب ، نسبة إلي نبات الخطر .

وكم شيوخ غدَوْا بيضًا مفارقُهمْ يسبِّحون وباتوا فى الخنا سُبُحا
لو تعقل الأرض ودت أنها صفِرتْ منهم فلم يَرَ فيها ناظرٌ شبحا
أرى ابن آدم قضَّى عيشةً عجبًا إنْ لم يَرُح خاسرًا منها فما ربحا

* * *

وإذا كان الشباب لا يعود – كما قال البحترى :

لا جديد الصِّبا ولا رَيْعانُه راجعٌ بعد ما تقضَّى زمانُهْ

وكما قال غيره ، وكما هو واقع الأمر ، فقد خلَّف الشيبَ ، ولكن إذا ذهب هذا فذهابه نهاية الحياة ، وإذا كان الأمر كذلك فلِمَ لا تَملأ النُّفوسَ الأمانىُّ بأن يبقى الشيب وإن كان مكروها ؟!!

نظر سليمان بن وهب في المرآة فرأي الشيب ، فقال : عيب لا عدمناه [١]!

وفى هذا المعنى بيتان مشهوران [٢] :

الشيب كرهٌ ، وكرهٌ أن يفارقنى أعْجِبْ بِشَيْءٍ على البغضاء مودود
يمضى الشباب ويأتى بعده خلَفٌ والشيْب يذهبُ مفقودًا بمفقود

ويقول أبو تمام فى هذا المعنى :

له منظرٌ فى العين أبيضُ ناصعٌ ولكنه فى القلب أسودُ أسفعُ
ونحن نرجِّيه على الكره والرضا وأنفُ الفتى من وجهه وهو أجدع

* * *

هذه أمنية شاعت وذاعت ، فما من شائب إلا تمنَّى أن يطول زمن شيبه ، ولم أقف على أحد خالف فى ذلك إلا أبو العلاء ، فإن الرغبة فى مفارقة البشيب ، التى تصحبها مفارقة الحياة شائعة فى شعر (اللزوميات) ، ومن ذلك قوله :

---

(١) زهر الآداب جـ ٤ ص ٤٩ .

(٢) هما لبشار – فى آمالى المرتضى ٣ / ٦٥ ، وفى ديوان ابن المعتز ، وفى ديوان مسلم بن الوليد .

لحـــــاكِ اللهُ يـا دنـيــــا خَـلـوبًـا   فــأنـتِ الـغــادةُ الـبِكْـر الـعــجــوزُ
وجــــــدنـاكِ الـطـريـق إلـى المـنـايـا   وقـد طـال المـدى فـمـتـى نجـوز ؟!!
ســئِــمـنـا مـن أذاكِ فـنـجِّــزيـنـا   فـــإن مـــروءة الـوعــد الـنُّـجــورُ

بل دعا يونس على من عاب عليه شيبه . لقيه أحد أعدائه وهو يتهادى ، ويقارب خطوه . فقال : يا يونس . بلغتَ ما أرى ، فقال : هذا الذى كنت آمله فقد بلغتُه ، فلا بَلْغتَه ، فاستحسن محمد بن عبد الملك الزيات قول يونس فجعله شعرا ، فقال :

وعـــائـب عـــابـنـى بـشـــيْـــبـى   لـم يَـعْــــدُ لَمَّا ألـمَّ وقـــــتــــه
فـــقـلـت إذ عـــابـنـى بـشـــيـــبـى   يـا عـائـب الـشـيـب لا بـلـغـتـه [1]

*   *   *

(١) المحاسن والمساوئ ص ٣٥٢ للشيخ إبراهيم البيهقى (من علماء القرن الحادى عشر الهجرى).

مواعظ ونصائح

عِبَرٌ كلُّها الليالى ولكن　　　أين مَن يفتحُ الكتابَ وَيَقرا!!

في كثير مما سبق ذكره ما يهدى الضال لو تبصَّر ، ويرود الشارد لو عقل ، ولكن لعل مما يضيء الطريق للسالك ، ويبرز المعالم للمتنكِّب عن الجادة أن نضيف بعض ما ارتبط بالزمن من نصائح نافعة ، ومواعظ بليغة .

يقول عدى بن زيد :

كفى زاجرا للمرء أيام دهره　　　تروح له بالواعظات وتهتدى

ومن حكم أفلاطون : (عمر الدنيا أقصر من أن تطاع فيها الأحقاد) .

ويجرى معن بن أوس أو سعيد بن حميد فى هذا المضمار .

أقْلِلْ عتابك فالبقاء قليل　　　والدهر يعدل تارة ويميل

ولعل أحداث المنية والردى　　　يوما ستصدع بيننا وتحول

ولعل أيام الحياة قليلة　　　فعلام يكثر عتبنا ويطول

ويتبعه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، فيقول :

إلى كم يكون الصَّد فى كل ساعة　　　ولِمَ لا تَمَلَّنَّ القطيعة والهجرا

رويدك إنَّ الدهر فيه بقيةٌ　　　لتفريق ذات البيْن فانتظر الدهرا

* * *

ومن أحسن المواعظ وأبلغها موعظة وُجِّهت لعمر بن عبد العزيز – رحمه الله – : قيل له : ما كان أول توبتك ؟ فقال : أردت ضرب غلام لى ، فقال : يا عمر . [اذكُرْ ليلةً صبيحتُها يومُ القيامة] [١] .

---

(١) الكشكول للعاملى جـ ١ . ص ٢٤١ .

وما كان بينه وبين الحسن البصرى – رحمهما الله تعالي – :

كتب الحسن إليه : أما بعد . فكأنك بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل .
فكتب إليه عمر : أما بعد فكأنَّ آخر من كُتب عليه الموت قد مات . والسلام .

* * *

ويقول صلاح الدين الصفدى (٦٩٦ – ٧٦٤ هـ) :

يا ساحبًا ذيل الصِّبا في الهوى	أبليته فى الغىِّ وهوّ القشيبْ
فاغسل بدمع العين ثوب التقى	ونقِّه من قبل وقع المشيب (١)

ومن كلام أبي حيان التوحيدى :

لا تغرنك صحة نفسك ، وسلامة أمسك ، فمدة العمر قليلة ، وصحة النفس مستحيلة . وقوله : من لم يعتبر بالأيام لم ينزجر بالملام .

على بن محمد بن منصور بن نصر بن بسام البغدادى ، وكان كاتبا شاعرا مجيدا إلا أنه كان هجاء كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وهجا أباه وإخوته ، وسائر أهل بيته ، وكان يكنى أبا جعفر . ت ٣٠٣ هـ .

من جيد شعره :

أقلعتُ عن طلب البطالة والصبا	لما علانى للمشيب قناع
لله أيام الشباب ولهوُهُ	لو أنَّ أيام الشباب تباع
فدع الصِّبا يا قلب واسْلُ عن الهوى	ما فيك بعد مشيبك استْمتاع
وانظر إلى الدنيا بعين مودِّع	فلقد دنا سفر وحان وداع
والحادثات موكلات بالفتى	والناس بعد الحادثات سَماع(٢)

وقد أعجبنى قول عصْرِيّنا الدكتور مصطفى محمود ، حيث يقول :

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٠٩ . (٢) النجوم الزاهرة – جـ ٣ . ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

ما أشبه الزمن بوهم : الماضى فيه عدم ، والمستقبل خيال ، والحاضر مجرد خيط بين وهمين .

وحركتنا عبر هذا الخيط أسرع مما نتصور ، فما تلبث سِنو العمر أن تصبح ماضيا معدوما ، وما تبقى من أيام العمر مستقبلا موهوما ، ثم يفاجئنا الموت وينتهى كل شئ [1].

* * *

أبو اليمن زيد بن الحسن الكندى تاج الدين ، النحوى ، الأديب المُقْري ، كان أوحد عصره فى فنون الآداب ، وعلوٌ السماع :

أرى المرء يهوى أن تطول حياته ... وفي طولها إرهاق ذلٌ وإزهاق

تمنيت في عصر الشبيبة أننى ... أعمَّر ، والأعمار لا شك أرزاق

فلما أتانى ما تمنيت ساءنى ... من العمر ما قد كنت أهوى وأشتاق

وهاأنا فى إحدى وتسْعين حجة ... لها فيَّ إرعاد مخيف وإبراق

يقولون ترياق لمثلك نافع ... ومالى إلا رحمة الله ترياق [2]

ولمحمد بن حازم الباهلى :

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إنَّ الحوادث قد يطرقْن أسحارا

ولأبى على الشِّبلى :

وما أهل المنازل غير ركب ... مطاياهم رواحٌ وابتكار

لنا فى الدهر آمالٌ كبارٌ ... نرجِّيها وأعمارٌ قِصار

ولذى الإصبع العدوانى - كما فى أمالى المرتَضّى - أو لفَرْوة بن مُسَيْك الصحابى - كما في (أنوار الربيع ٤ - ٣٤) :

---

(١) صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ٢٤ / ٧ / ١٩٩٣ م

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ . ص ٨٩ .

إذا مـا الدّهر جـرّ على أناس كـلاكله أناخ بآخـرينا
فـقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

وقال أبو القاسم الجنيد الزاهد – رحمه الله تعالى – :

لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته أكثر مما ناله .

ويروى عن (أفلاطون) قوله : (لا تفرح بسقطة غيرك فإنك لا تدرى كيف تتصرف الأيام) .

ويروى أن عـروة بن الزبير – رضي الله عنه – أصيب فى رجله فـقطعت ، قالوا : ولم يترك ورده [1] إلا ليلتها ، يروى أنه تمثل في هذه الليلة بأبيات لمعن ابن أوس :

لعمرك ما أهويت كفي لريبة ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى

ومن حكم أبي حيان التوحيدى : (تجرع من عدوك الغُصَّة ، إن لم تنل منه الفُرصة ، فإذا وجدتها فانتهزها قبل أن يفوتك الدَّرَك ، ويُعييك الفلك ، فإن الدنيا دول ، تبنيها الأقدار ، ويهدمها الليل والنهار) [2] .

وقد سبق نظير هذا المعنى فى فصل سبق [3] .

ومن المواعظ الجيدة التى يجب أن يتذكرها المؤمن في كل أحواله قول سعيد بن وهب :

أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذْ حسُنت ولم تخفْ غِبَّ ما يأتى به القدر
وسالَمَتْك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر

قلت : وهذا باب واسع من الصعب استقصاء ما قيل فيه ، بل من الصعب مقاربة الاستقصاء ، وإنما هى النماذج والمُثُل .

* * *

(١) قالوا : كان يقرأ ربع القرآن كل يوم فى المصحف ، ويقوم به ليله ، فما تركه إلا ليلة قطْع رجله ثم عاد حزبه من الليلة المقبلة (عن الحلية لأبى نعيم – ترجمة عروة) .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٦١ .

(٣) ص ٢٣ .

البكاء على الشباب

أسلفت قول يونس بن حبيب : ما بكت العرب على شئ فى أشعارها كبكائها على الشباب ، وما بلغت كنهه .

وقال الأصمعى : أحسن أنماط الشعر المراثي ، والبكاء على الشباب [١] . وكيف لا يبكى عليه البكاء اللاذع الحزين ؟ وكيف لا يكون البكاء عليه من أحسن أنماط الشعر ، وهو كما لا يجهله أحد نضارة الحياة وغضارتها ، ففقده يثير العواطف ، ويبعث الشجون ، ويحرك الكامن من الأحزان ، فيصدق الشاعر، لأنه يقول عن طبع ، ويعبِّر عن واقع :

دخل منصور النمرى على الرشيد ، فأنشده :

ما تنقضى حسرةٌ مني ولا جزَع   إذا ذكرتُ شبابا ليس يرتَجع

ما كنتْ أوفى شبابى كنْه عزته   حتى انقضى فإذا الدنيا له تبْعُ

فبكى الرشيد حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : يا نمرى . ما خير دنيا لا يُخطر فيها برداء الشباب [٢] .

وكأن الشريف المرضى نظر إلى البيت فى قوله :

فمن يَكُ ناسيًا عهداً فإني   لعهدك يا شبابى غيرُ ناس

فإنَّ العيشَ بعدك غيرُ عيْش   وإنَّ الناس بعدك غيرُ ناس [٣]

ولقد صدق ابن حازم الباهلى فى قوله :

عهدَ الشباب لقد أبقيت لى حَزنا   ما جدَّ ذكرُك إلا جدَّ لى ثُكُل

لا تكذبَنَّ فما الدنيا بأجمعها   من الشباب بيوم واحدٍ بدَل

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٤٧ .

(٢) الموازنة جـ ٢ . ص ٢٢٥ .

(٣) وفيات الأعيان جـ ٣ . ص ٦٥ .

ويستولي التشاؤم على ابن سُكَّرة الهاشمى ، فيقول :

لقد بان الشباب وكان غضا ... له ثمرٌ وأوراقٌ تُظلُّك

وكان البعض منك فمات فاعلم ... إذا ما مات بعضُك مات كلُّك

فهو ليس البكاء على الشباب لذات الشباب ، بل لأن فوته نذير بالموت ، ويُصرِّح بذلك الرئيس أبو منصور على بن الحَسن المشهور بصَرَّدُرّ :

لم أبْكِ أن رحل الشباب وإنما ... أبكي لأنْ يتقاربَ الميعادُ

شَعَرُ الفتى أوراقُه فإذا ذَوَتْ ... جفّتْ على آثارِها الأعواد

وشبيه به قول الآخر :

نزل المشيب بعارضيّ (م) ... وضقتُ ذرعا بالمشيب

وبكيت إذْ رحل الشبـ ... ـابُ بكا المحبِّ على الحبيب

داءٌ عياء ليس مما (م) ... أشتكيه إلى الطبيب

ما للمشيب بكَيْتُ لكـ ... ـنْ خيفة الأجل القريب

وإذا كان الشعراء وغيرهم قد بكوا الشباب بعد أن فارقهم، فإن المتنبى بكاه ولـمَّتُه مسودة كما يقول:

ولقد بكيتُ على الشباب ولمَّتي ... مسودَّةٌ ولماءِ وجهيَ رونَق

حذراً عليه قبل يومِ فراقه ... حتى لَكِدْتُ بماء جفنيّ أشرق

ويصدق محمود الوراق إذْ يقول:

شيئان لو بكت الدماءَ عليهما ... عيناكَ حتى تؤذنا بذهاب

لم تبلغا المعشار من حَقَّيْهما ... فقدُ الشباب وفرقة الأحباب

ولكن فرقة الأحباب أخف لأن الأمل فى اللقاء يطامن من ألم الفراق، أما فراق الشباب فهو أشد وأقسى لأنه لا أمل فى عودته:

وفُرقة ما يعاد عليكَ صعْبٌ ... فكيف فِراق شئ لا يعاد؟!!

ومهما لقى الإنسان فى شبابه من متاعب ومصاعب فإنه يتخيله سعدا وبشرا وسروراً، وكما قال الشاعر الأستاذ على الجندى – رحمه الله – :

وما كان صَعْبًا علىَّ الوصـــــالُ لو أنَّ الصِّبا ما خلعنا جديدَهْ
شبابٌ برغم الأسى والشجـــــون تولَّتْ لياليه عنَّا حميده[1]

فما بالنا بهؤلاء الذين ينعون على الشباب، ويودِّعونه غير آسفين على فراقه، كما قال أبو الطيب المُصْقَبى :-

لَمْ أقلْ للشباب فى كنَف اللـــــه وفى ستره غداةَ استقلا
زائر زارنى أقـــام قليـــــلا سوّد الصُّحْفَ بالذنوب وولّى

ولعل أبا العلاء المعرى نظر إلى البيت الثانى فى قوله :

إذا ما أسنَّ الشيخ أقصاه أهلُه وجار عليه النجْلُ والعبْدُ والعِرسُ
يسبِّح كيما يغفر الله ذنبَه رُوَيْدك فى عهد الصِّبا مُلِئ الطَرس

وقد سبقهما أبو الأسود الدؤلى بقوله [2] :

غدا منك أسباب الشباب فودَّعا وكان كجارٍ بان يوما فودَّعا
فقلتُ له فاذهب ذميما فليْتنى قتلتُك علما قبل أن تتصدَّعا
جنيتَ علىَّ الذَّنبَ ثم خَذَلتنى عليه فبِئس الخَلتان هما معا
وكنتَ سرابًا ما ضحا إذْ تركتنى رهينة ما أجْنى من الشر أجمعا

وفى هذا المضمار جرى البهاء زهير (٦٥٦ هـ) :

رحل الشـــــباب ولم أنَل من لذة فـيـــه نصـيـــبى
يا طيـــبـــه لو لم يكن مــلأ الصــحــائف بالذنوب
أرسلت دمـــعى خلفـــه فــعــســاه يرجع من قــريب
هيــــهــــات لا والله مـــا هو بالســمــيع ولا المجــيب

وكل الذين امتدحوا الشباب يتمنَّون أن يعود، ربما ليحصِّلوا ما فاتهم من لذات،أو ليحققوا ما كسلوا عن تحقيقه من المآرب، فإن الشباب - كما يقول أبو العلاء - :

---

(١) الموازنة ج ٢ ص ٢٢٠ . (٢) عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٢٦ .

إن الشـبـيـبـة نارٌ إن أردتَ بهـا أمـرًا فـبـادره إنَّ الدهر مُطفـئـهـا

حتى الذين ذمُّوا الشباب، واتهموه بأنه ملأ صحفهم بالذنوب يتمنَّوْن أن يعود، ربما ليكفروا عما اقترفوا من ذنوب، بل ربما ليزدادوا ذنوبا، ولا شك أن بعضهم كأولئك الذين قال الله فيهم: ﴿ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: ٢٨]

الجميع ينشد مع أبى العتاهية:

عَرِيتُ من الشباب وكان غضًّا كما يَعرى من الورقِ القضيبُ

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

* * *

ولكن هل يعود الشباب؟

الجواب: الواقع يقول: لا. واستعمال أبى العتاهية حرف التمنى (ليت) ينادى بذلك.

ولكن بعض المؤسسات الصحية تبشر الشيوخ بأن الشباب سيعود!!!

فهل تتحقق ودادة البهاء زهير [١]:

ذهب الجديد من الشبا ب فكيف ظنك بالخليع

وودت لو دام الخليـ ـع فهل إليه من شفيع

* * *

(١) أبو الفضل زهير بن محمد ... المهلبى الأزدى نشأ فى مصر، وكانت له رحلات إلى الشام وبلاد العرب، وشعره رقيق عذب سهل. ويقول فيه ابن خلكان حين اجتمع به فى القاهرة: (رأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق وكثرة الرياضة، ودماثة السجايا) وُلد البهاء سنة ٥٨١ هـ بالحجاز فى وادى نخلة، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ.

المشـــكلة

قرأنا، وسنقرأ كثيرا من الأساليب التى تنسب فيها الأفعال إلى الأزمنة: الزمن – الزمان – الدهر – السنين – الليالى – الأيام ... إلخ.

فكيف نحكم على هذه الأساليب من وجهة نظر علماء البلاغة؟

ليس أمامنا إلا طريقان:

١ – أن نعرف أن صاحب الأسلوب يعتقد أن الزمن الذى أسند إليه الفعل هو الفاعل الحقيقى لهذا الفعل، وذلك إذا كان ممن يعتقدون أن الزمن هو المتصرف فى الكائنات، وعنه – وحده – تصدر كل الأفعال.

٢ – أن يظهر من مقال المتكلم أو حاله أنه لا يعتقد بقدرة الزمن على الفعل، وأن الفعل صادر من فاعل آخر.

ولا بد من هذا النظر لنفرق بين القبيلين، وإلا لألغينا العقل البشرى، ووقعنا فيمن يتوهمون أن الأفعال تسند إلى فاعليها دون أن يكون للعقل أو للاعتقاد أى دخل فى ذلك، وكأن المتكلمين لا يعبرون عن دواخل نفوسهم، وإنما يعبرون لمجرد التعبير، ولأن اللغة تطلب فعلا وفاعلا وحسْب !!

وعلماء البلاغة يسمون الأسلوب الأول (الحقيقة العقلية).

ويسمون الأسلوب الثانى (المجاز العقلى – أو المجاز الحكمى أو المجاز الإسناد).

وليست التسمية هى موضع القضية فلمن يشاء أن يطلق ما يشاء من التسمية، فقط. لا بد أن يفرق بين الأسلوبين فى التسمية، لأنه إذا اختلفت المعانى وجب اختلاف الأسماء أو المصطلحات للتمييز بين الأنواع.

والتسمية إذا اصطلح عليها أصحاب علم من العلوم لا يجادل فيها، ومن الأقوال الشائعة: لا مشاحَّة فى الاصطلاح.

وليس بشئ ما ذهب إليه بعض المحدثين من إنكار المجاز العقلى بدعوى أن

روح اللغة تأباه، كما تأبى المجاز اللغوى، ويرى أن علماء العربية متقدمين ومتأخرين لم يفهموا روح اللغة، وأن القول بالمجاز العقلى يجمد وظيفة اللغة، ويقضى عليها، فعلاقة الأشياء – كما يقول – علاقة طبيعية يقتضيها كل كلام، وأن الفاعل فى كل ما سمى المجاز العقلى ليس سوى ما ثبت فى اللفظ على ما تقضى به أحكام اللغة.

وأشاد بالنحويين لأنهم كانوا فى هذا ومثله أصح نظرا، وأكثر اعتدادا بالظاهرة اللغوية، فأثبتوا الفاعلية بناء على ما ورد فى اللفظ، فهم فى ذلك تفادوا الانسياق وراء العلاقات الفعلية كما انساق علماء البلاغة يخدعهم الفاعل الحقيقى عن الفاعل اللغوى [1].

وهذه كلها مغالطات أو مكابرات:

فأولا: (طبيعة اللغة) و(روح اللغة) دعويان وليسا برهانين.

والد عاوى إن لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

كما يقول البوصيرى رحمه الله تعالى.

فلقائل أن يقول: بل طبيعة اللغة الكشف عن الأسرار المعنوية وراء التراكيب. وليس مجرد النظر الظاهر.

وفى ذلك يقول الجاحظ: (ومدار الأمر على فهم المعانى لا الألفاظ، والحقائق لا العبارات [2]).

أما روح اللغة فما أدرى ما المراد منها، وهل نفرد الباحث وحده بفهم روح اللغة؟ وإن كان قد تعطف على النحويين فميزهم عن البلاغيين بفهم روح اللغة وطبيعتها.

ثانيا: إن أكثر ما قرأنا من النقد العربى لكبار النقاد العرب يتناول

---

(١) دار لطفى عبد البديع – التركيب اللغوى للأدب ص ١٧، ٢١.

(٢) الحيوان ج ٥ ص ٥٤٢.

المعانى، ويبحث وراء أسرار التراكيب، وكلمة الجاحظ السابقة من الشواهد على ذلك.

ثالثا: نَسى الكاتب أو تناسى أن كبار النحاة كان لهم آثار واضحة فى تدوين علوم البلاغة، فسيبويه إمامهم أول من نبَّه إلى هذا المجاز العقلى، وسماه اتساعا، وذكر له أمثلة وشواهد ظلت تدور فى كتب البلاغة إلى وقتنا هذا.

وابن جنى النحوى الكبير كان بحثه عن أسرار اللغة فى كتبه بمقدار بحثه عن الظواهر اللغوية.

والشيخ عبد القاهر الذى أطال البحث فى هذا المجاز، والذى يُعد بحق إمام البلاغيين كان يعرف بالنحوى.

أم ترى أن هؤلاء وآمثالهم كثيرون كانوا يفهمون روح اللغة وطبيعتها حين يتكلمون فى النحو، ويجهلونهما حين يتكلمون فى البلاغة؟!.

فكيف يستسيغ هذا الكاتب أن يجعل النحاة فى جانب والبلاغيين فى جانب آخر فى هذه القضية؟، وأنى له أن يتهم البلاغيين وهم نحاة، بل من أئمتهم بأنهم كانوا أقلَّ فهما للأساليب من النحاة؟ وغاية هذا أن نحاة البلاغيين كانوا أقل لفهم هذه الأساليب من أنفسهم.

رابعا: لا أدرى ما هو الباعث وراء اتهام علمائنا بِسوء الفهم، وبعدمه أحيانا؟!

وإذا لم يفهم سيبويه والفراء والمبرد وابن جنى وعبد القاهر والرازى والسكاكى والخطيب وابن الأثير هذه الظواهر اللغوية فهل فهمها هؤلاء الذين قصارى أمرهم أن يعيشوا على علوم هؤلاء، ولكنَّ البلوى أنهم يعيشون أيضا تحت شعار: (خالف تعرف).

بل لعلهم يتوهمون حين يرمون علماءنا بالجهل أنهم أرسخ قدما، وأصح نظرا من هؤلاء العلماء، وأنهم يبنون لهم بذلك مجدا لا يكلفهم إلا أن يقولوا إن علماء البلاغة لم يفهموا الظواهر البلاغية.

خامسا: النحويون غير البلاغيين لم يُخْلُوا مؤلفاتهم من النظر فى أسرار الكلام حتى هؤلاء المتأخرون الذين عُنوا أكثر ما عُنوا بالظواهر الإعرابية.

سادسا: حكى القرآن الكريم عن قوم أنهم قالوا: «وما يهلكنا إلا الدهر». ورماهم القرآن باتباع الظن وبالجهل، وبأنهم إذا تليت عليهم آيات الله أنكروا، وقالوا: «ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين» فهل وصفهم القرآن بكل ذلك لمجرد الظاهرة اللغوية أم حاسبهم على اعتقادهم الفاسد الذى يتضمَّن قولهم «ما يهلكنا إلا الدهر»؟.

والعلماء ،والشعراء والكتاب وغيرهم الذين ورد فى أقوالهم نسبة الأفعال إلى الدهر، وهم مسلمون مؤمنون بالبعث، وأنه من الله تعالى ليس فى أقوالهم إلا الفاعل الظاهر؟.

وهل نُسوِّى بينهم – حين نعرض لأساليبهم – وبين هؤلاء الذين دلَّت مقالتهم على اعتقادهم فى أن الزمن هو المتَصرِّف فى كل الكائنات؟.

أعتقد أن المنطق السليم، والنظر الواعى، والإنصاف. كل أولئك تحتم علينا أن نفرِّق بين الفريقين، ولو ذهبنا مذهب صاحبنا هذا الذى ينكر المجاز العقلى لسوينًا بين الفريقين، ولأغمضنا أعيننا عن المعانى، وقلنا إن اللغة لا تعبر إلا عن الظواهر، وأن الدهر فاعل هنا وفاعل هناك، وكفى بذلك خبطا وغلطا وجهلا!

الحق أن اللغة ليست فقط ألفاظا وتراكيب، ولكنها – وهو الأهم – وراء ذلك، وقبله وبعده معانٍ، وعقائد وعواطف وأفكار.

وهذا شيخ النحويين يصرح بأن وراء الألفاظ معانى. يقول سيبويه: عن قوله تعالى ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]: (ومثل ما أجرى مجرى هذا فى سَعة الكلام والاستخفاف قوله عز وجل: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (فالليل والنهار لا يمكران، ولكن المكر فيهما [١]).

---

(١) الكتاب ج ١ ص ١١٠ – ١١١.

ويقول الفراء عن نفس الآية فى كتابه: (معانى القرآن): (المكر ليس لليل ولا للنهار، إنما المعنى: بل مكركم بالليل والنهار، وقد يجوز أن تضيف الفعل إلى الليل والنهار ويكونا كالفاعلين؛ لأن العرب تقول: نهارك صائم، وليلك قائم).

فهذان عالمان من كبار النحاة لم يقفا عند فهم طبيعة اللغة - كما يقول الكاتب - وإنما ذهبا إلى ما ينبغى أن يذهب إليه كل عاقل، وهو أن الفاعل وإن أسند إليه الفعل لا يلزم أن يكون هو الفاعل الحقيقى.

ولو أن الكاتب تأمل قليلا قول الفراء حين يقال: صام النهار وقام الليل إن الليل والنهار كالفاعلين، لو تأمل ذلك جيِّدا لما قال إن النحاة يكتفون بالفاعل الظاهر.

وقد أجمع علماء البلاغة قد يمهم وحديثهم على أن الفعل إذا أسند إلى الزمن وقامت قرينة مقالية أو حالية على أن القائل لا يعتقد بأن الزمن هو المؤثر كان ذلك مجازا عقليا، إلا ما سنذكره قريبا عن بعضهم.

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وقد عبر رؤيا الملك بأن سبع سنين ستحفل بما يزرعون هنا الذى يتركونه فى سنبله إلا قليلا مما يأكلون، جاء قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ** ﴾ [يوسف: ٤٨].

فالسنون تأكل، ولا يقول عاقل إن الفاعل هنا فاعل حقيقى، وإنما يقال إنه فاعل مجازى، أو كما قال الفراء (كالفاعل) - فى مثله.

فمن الواضح - إذًا - أن كل ما أوردناه من شواهد، وما نورده من هذا القبيل إلا ما جاء عن الدهريين.

وقد قال علماء البلاغة منذ فخر الدين الرازى أنه لا بد لكل فعل أسند إلى فاعل غير حقيقى لا بد له من فاعل فى الأصل إذا أسند إليه الفعل كان الإسناد حقيقيا، وهو ما يسمونه: الحقيقة العقلية التى يقابلها (المجاز العقلى).

وإذا تأملنا هذه الأساليب الكثيرة أمكننا فى بعضها أن نقف بسهولة على الفاعل الحقيقى، والأمثلة والشواهد كثيرة، وتعذر علينا فى بعضها أن نجد فاعلا حقيقيا.

فأبو العلاء المعرى الذى نسب أفعالا كثيرة إلى الدهر يقول:

إذا قيل غال الدهر شيئا فإنما   يراد إله الدهر والدهر خادم

فهذه عقيدته كل شئ بيد الله – سبحانه وتعالى – أما الدهر فلا حول له ولا قوة. وعندما يُسنَد فعل إلى الدهر إنما يراد إسناده – فى الحقيقة – إلى الله تعالى.

ولكنا لو تتبعنا شعر أبى العلاء نفسه فى هذا المعنى، وشعر كثيرين غيره لا نستطيع أن نضع مكان (الدهر) (إله الدهر).

فأبو العلاء الذى يقول:

أتكتب سطرا ليس فيه تخوف   لربك ما أولى بنانك بالأشر

ويقول:

أمور دنياك سطر خطه قدر   وحبُّها فى السجايا أوّل السَّطَر

هو الذى يقول عن الدهر إنه غادر:

والعالم ابن والدهر والده   نَجْل غوىٌّ ووالد غُدَر

بل يصف الدهر بالبلاهة:

أما أبو تمام فَيُسِفُّ حين يقول:

لَعَدْلٌ قسمة الأرزاق فينا   ولكن دهرنا هذا حمار

ويصف ابن القَطَّان [1] الزمن بالخرَف، فى هجائه لابن المرخم [2]:

يابن المرخم صرت فينا قاضيا   خرِف الزمان تُراه أم جُنَّ الفلك؟!

---

(١) هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل الشاعر المشهور. كان غاية فى الخلاعة والمجون، والغالب عليه الهجاء لم يسلم منه لا الخليفة ولا غيره. (وفيات الأعيان ١ – ٥٣) وهو غير ابن القطان الفقيه الشافعى.

(٢) ابن المرخم يحيى بن المظفر كان قاضى القضاة ببغداد فى أيام الخليفة المقتفى.

إن كنت تحكم بالنجوم فربما　　　أما بشرع محمد من أين لك؟!

والإمام الشافعي – رضي الله عنه – يصف الدهر بالخيانة :

تدرّعتُ ثوبا للقنوع حصينة　　　أصون بها عرضي وأجعلها ذخرا [١]

ولم أحذر الدهر الخئون فإنما　　　قصاراه أن يرمي بي الموت والفقرا

فأعددت للموت الإله وعفوه　　　وأعددت للفقر التجلد والصبرا

والشاعر (ابن الهبارية) يشبه الدهر بالدولاب في هجائه لنظام الملك. ذلك أنه كان بين نظام الملك وزيرا لسلطان ألب أرسلان، وبين تاج الملك أبي الغنائم بن دارَسْت شحناء فقال أبو الغنائم لابن الهبارية إن هجوت نظام الملك فلك عندي كذا، وأجزل له الوعد فقال: كيف أهجو شخصا لا أرى في بيتي شيئا إلا من نعمته؟!. فقال: لا بُدَّ من هذا. فعمل ابن الهبارية هذه الأبيات:

لا غرو أن ملك ابن اسحاق　　　وساعده القدرْ

وصفت له الدنيا　　　وخص أبو الغنائم بالكدر

فالدهر كالدولاب ليس　　　يدور إلا بالبقر

فبلغت الأبيات نظام الملك، فقال: هو يشير إلى المثل السائر على ألسنة الناس، وهو قولهم: (أهل طوس بقر)، وكان نظام الملك من (طوس)، وأغضى عنه، ولم يقابله على ذلك، بل زاد في إفضاله عليه، وكانت هذه معدودة من مكارم أخلاق نظام الملك وسَعة حلمه [٢].

وهذا شاعر مجهول يصف الدهر بالغلط وبالسُّكْر:

---

(١) استعمل الشافعي – وهو عالم لغوي – (القنوع) مكان (القناعة)، وقد استعمله – أيضا – أبو تمام، لكن الآمدي يعلق على استعمال الشافعي بقوله: (لأن المتأخرين في هذا الموضع يستعملون القنوع) الموازنة ج ٢ ص ٢٤٥.

(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٧٨ وابن الهبارية هو محمد بن محمد بن صالح العباسي، شاعر هجاء، ولد ببغداد وأقام مدة بأصبهان، ومن كتبه: (الصادح والباغم)، وهو أراجيز في ألفيْ بيت على أسلوب (كليلة ودمنة)، يغلب على شعره السخف والمجون. توفي سنة ٥٠٩ هـ.

أقـول لمن قـد طيـشـتـه رياسـة	تمهل، رويدا، فـيك قـد غلط الدهر
وما سُدْت عن علم ولا عن فصاحة	ولا عن ذكا فضل وذاك هو القهر
تأن يراجعْ فـيك دهرُك عـقلَه	فما سُدْتَ إلا والزمان به سكر
ولكن سيصحو الدهر من بعد سكره	ويسقيك كاسات مذاقتها الصبر

* * *

والشيخ عبد القاهر – وهو العالم التقى الورع – يحطب فى هذه الحبال أيضا، فيصف الدهر بالخيانة وبالنوم، وبالإفاقة منه، وذلك حين يتحدث عن المعانى وكيف تفترق وتختلف، وأن منها معانى وضيعة فى نفسها ترفعها الصنعة: (حتى إذا خانت الأيام أصحابها ... سقطت قيمتها، وانحطت رتبتها) ... (وصارت كمن أحظاه الجد بغير فضل كان يرجع إليه فى نفسه، وقدَّمه البخت من غير معنى يقضى بتقدمه، ثم أفاق فيه الدهر من رقدته، وتنبَّه لغلطته فأعاده إلى رقة أصله، وقلة فضله [1]).

* * *

هذه هى المشكلة. أساليب لا يمكن حملها على الحقيقة لأن قائليها لا يعتقدون بفعل الدهر، ولا يمكن وصفها بالمجاز العقلى لأنه من الحتْم أن يكون للإسناد المجازى هذا إسناد حقيقى سابق عليه، ولا تخريجها على الاستعارة المكنية – كما يرى السكاكى [2] فى أمثالها – لأنا لا نجد مشبها به، أو مستعارا منه مناسبا فما المخلص ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نسأل سؤالاً آخر: ما الذى يحمل الناس عالمهم وجاهلهم، تقيَّهم وفاجَرهم، ناثرهم وشاعرَهم على أن ينسبوا الأفعال للزمن، وهم على يقين كامل بأن الزمن لا يحسن ولا يسيئ، ولا يضر ولا ينفع، وإنما ذلك

---

(١) وجدتها فى كتاب (هزُّ القُحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف).

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٥، ٢٦.

للمقادير الإلهية وحدها، ومنهم من يصرح بذلك، وكلهم لو سئل: ما ذنب الدهر؟ لأجاب - كما ذكرنا عن بعضهم سابقا: لا ذنب له، إنما الدهر وعاء، وكما قال:

ونحن نشكو الدهر نظلمه كل امرئ لاقيته دهر

لقد أجاب بعض علماء البلاغة بقوله: (وأجاب الحفيد فى حاشيته على المختصر بأن إسناد الإهلاك إلى الدهر على معنى وقوع الهلاك بلا تأثير من أحد، لا من الله تعالى ولا من غيره، بل لانتهاء مادة الحياة. قال: وأما إسناد الحوادث إليه فى كلام العرب فلإظهار التحزن والشكوى فى صورة الإسناد إلى الدهر على سبيل الظرافة بدليل وقوع هذا الإسناد فى كلام أهل الإسلام مع اعترافهم بانفراد الله تعالى بالتأثير [1]) وكلا الجوابين عجيب غريب. وكأن الحفيد لم يصل إلى عمله أن فريقا من ضُلال الهنود كانوا يعتقدون أن الزمن هو المتصرف الوحيد فى كل الكائنات، وأن هذا الآعتقاد يعشعش فى رؤوس ضُلاَّل آخرين من العرب.

ثم ما هذه الظرافة، والإسناد إلى الزمن جاء فى القرآن الكريم، وفى الحديث النبوى الشريف، وفى كلام الصحابة.

ولعل أقرب ما يرجحه العقل أنهم يلجأون إلى هذه الأساليب هربا من أن ينسبوا ما يرون أنه ظلم إلى القدر، وليجد أكثرهم مجال القول ذا سَعة، فيقول كل ما يخطر بباله، متهما به الأيام والليالى، وكأنه بذلك يبعد عن دائرة المساءلة والحساب، وليس علي سبيل التظرف والتملّح.

على أنه قد يكون فى نسبة بعض الأفعال إلى القدر ما يثير بعض المشاكل التى زلَّت فيها الأقدام، وضلَّت بعض العقول.

ذكر أبو حيان التوحيدى فى كتابه: (الإمتاع والمؤانسة) قول ابن الأحنف.

---

(١) تجريد البنانى على مختصر السعد ج ١ ص ١٨٣، والنقل ملخص من الحاشية المذكورة، لخصه البنانى.

إذا أردتُ سلواً كان ناصركم قلبى، وما أنا من قلبى بمنتصرِ
فأكثروا أو أقلّوا من إساءتكم فكل ذلك محمولُ على القدرِ
وضعتُ خدى لأدنى مَن يُطيف بكم حتى احتُقرتُ وما مثلى بمحتُقرْ

ثم قال: (وأبو عبد الله المرزباني شيخنا إذا سمع هذا جُنَّ واستغاث وشقَّ الجيب، وحوْلق، وقال: يا قوم: ما ترون إلى العباس بن الأحنف ما يكفيه أن يفجر حتى يكفر؟!!.

متى كانت القبائح والفضائح والعيوب والذنوب محمولة على القدر؟! ومتى قدّر الله هذه الأشياء، وقد نهى عنها؟. ولو قدَّرها كان قد رضى بها، ولو رضى بها لما عاقب عليها.

لعن الله الغزل إذا شِيبتَ بمجانة، والمجانة إذا قُرنت بما يقدح فى الديانة).

قال أبو حيان:

(ورأيت أبا صالح الهاشمى يقول له: هوِّن عليك يا شيخ. فليس هذا كله على ما تظن، القدر يأتى على كل شئ، ويتعلق بكل شئ، ويجرى لكل شئ، وهو سرُّ الله المكتوم كالعلم الذى يحيط بكل شئ، وكل ما جاز أن يحيط به علم جاز أنه يجرى به قدر، وإذا اجاز هذا جاز أن ينشرة خبر، وما هذا التضايق والتحارج فى هذا المكان، والشاعر يهزل ويجد، ويقرب ويبعد، ويصيب ويخطئ، ولا يؤاخذ بما يؤاخذ به الرجل الدَّيَّان، والعالم ذو البيان).

قلت: فهذه كلمة واحدة أيقظت مذهبين معروفين من مذاهب الفرق الإسلامية، وواجهت بين عالمين كبيرين.

ولست أوافق هذا العالم الهاشمى الذى يعتذر للشعراء، ولا يرى أن يؤاخذوا بما يؤاخذ به العلماء الديَّانون فى هذه المسأله أو فى غيرها ونحن فى هذه المسألة بالذات لا نفرق بين شاعر وعالم، ومُسْتهتَر وديّان بل نود أن تتفق كلمة المسلمين على رأى يدين به العالم والجاهل، والشاعر وغير الشاعر .

على أن الشعراء وغيرهم كانوا – ولا يزالون – ينسبون الأفعال إلى القضاء

والقدر ولكن إذا قيس صنيعهم هذا بنسبتهم الأفعال إلى الزمن كان الأول ضئيلا جدًّ ضئيل.

ولعل أحسن ما قيل فى هذا المسألة ما أجاب به العالم الزاهد محمد ابن واسع، وقد قال له بلال بن أبى بردة: ما تقول فى القضاء والقدر؟ فقال محمد: إن الله لا يسأل يوم القيامة عباده عن قضائه وقدره، وإنما يسألهم عن أعمالهم.

وكان محمد بن واسع - كما جاء فى حلية الأولياء - عالما واعيا، قليل الكلام، والرواية، كثير الصيام والسعاية.

وقد رأى يونس بن عبيد (١) قوما يختصمون فى القدر فقال: لو همتهم ذنوبهم لما اختصموا فى القدر.

* * *

ثم نعود إلى النَّسق، ونحاول الإجابة عن السؤال الأول: ما المخلص؟

لعل الإجابة تكمن فيما ذهب إليه الشيخ عبد القاهر من أنه لا يلزم أن يكون لكل فاعل مجازى فاعل حقيقى سابق عليه، وعبارته: (واعلم أنه ليس بواجب فى هذا أن يكون للفعل فاعل فى التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عُدْتُ به إلى الحقيقة، مثل أنك تقول: «ربحت تجارتهم»: ربحوا فى تجارتهم، فإن ذلك لا يتأتى فى كل شئ، ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل فى قولك: أقدمنى بلدك حق على إنسان فاعلا سوى الحق»؟!

---

(١) كان يونس من كبار الزهاد، مع غنى واسع، وقد ترك مرة ربحه من بضاعة باعها لشبهة أن أحد الشركاء زيَّنها بكلمة، وإن ربحه لأربعة آلاف.

وكان تاجرا صدوقا. جاءه رجل فطلب مطرفًا بأربعمائة، فقال له يونس: عندنا مطرف بمائتين، ثم انطلق إلى الصلاة فجاء وقد باع ابن أخته المطرف بأربعمائة، فقال: ما هذه الدراهم؟ قال: المطرف بعناه من ذلك الرجل، قال يونس: يا عبد الله، هذا المطرف الذى عرضت عليك بمائتى درهم فإن شئت خذه وخذ مائتين، وإن شئت دعه، قال الرجل: من أنت؟ قال: رجل من المسلمين. قال: بل أسألك بالله. من أنت؟ وما اسمك؟ قال: يونس بن عبيد. قال الرجل: فوالله لنكون فى نحر العدو فإذا اشتد الأمر علينا قلنا: اللهم رب يونس بن عبيد فرِّج عنا. قال يونس: سبحان الله سبحان الله. اهـ قلت: وإنما ذكرت هذه الحكاية العجيبة إعجابا بهذا التاجر الصادق فليرحمه الله (على).

ولكن العلماء يتعقبونه فى ذلك فيرفضون رفضا باتا مؤكدا أن يحدث فعل دون أن يكون محدثه فاعلا حقيقيا.

ولعل أول من ردّ على عبد القاهر قوله هذا – فيما أعلم – هو فخر الدين الرازى، فبعد أن نقل كلام الشيخ الذى ذكرت بعضه، قال: (وفيه نظر، وذلك لأن الفعل يستحيل وجوده إلا من فاعل، فالفعل المسند إلى شئ إما أن يسند إلى ما هو مستند فى ذاته إليه فيكون الإسناد حقيقيا، وإذا لم يسند إلى ذلك الشئ فلابد من شئ آخر يكون هو مستندا لذاته إليه، وإلا لزم حصول الفعل لا عن الفاعل وهو محال).

وسار علماء البلاغة المتأخرون على رأى الرازى، ووجه بعضهم كلام الشيخ عبد القاهر بأن مراده أن كلا من هذه الأفعال بذاتها التى ذكر لم يسبق أن أسندت إلى فاعل حقيقى.

قال سعد الدين التفتازانى : (والحق ما ذكره الشيخ)، ووضح الدسوقى مراد السعد معلقا عليه بقوله : (وذلك لأنه ليس مراده – يريد الشيخ عبد القاهر – نفى الفاعل رأسا، بل مراده نفى وجود فاعل أسند إليه الفعل قبل إسناده المجازى، ومحصّله أنه لا يشترط في المجاز أن يكون المسند قد أسند قبل إلى الفاعل الحقيقى، بل يجوز أن يكون من أول الأمر لم يسند ذلك المسند إلا إلي الفاعل المجازى . اهـ سم).

ثم قال الدسوقى : (وحاصل ما في المقام أنه لا نزاع بين القوم فى أن الفعل الموجود فى الخارج لابد له من فاعل يقوم به فى نفس الأمر لاستحالة وجود الفعل بذاته، لأنه من الأعراض[1]).

على أن الدسوقى جنح به رغبة الدفاع عن الشيخ عبد القاهر فذهب إلي أن الأفعال التى قال الشيخ ليس لواحد منها فاعل حقيقى . في قولهم : أقدمنى بلدك حقٌ لى على إنسان، وسرَّتنى رؤيتك، ويزيدك وجهه حسنا، أمور اعتبارية، قال : (ومعانى هذه الأفعال المتقدمة فى هذه الصورة من المسَّرة

---

(١) شروح التلخيص جـ ١ . ص ٢٦٣ . حاشية الدسوقى .

والإقدام والزيادة ليست موجودة فى الخارج أصلا لكونها أموراً اعتبارية فلا يصح أن يكون لها فاعل حقيقى بحيث ينتقل الإسناد عنه إلي الفاعل المجازى) .

وهو كلام غريب ، ودفاع لا وزن له ، لأن الأفعال سواء كانت موجودة فى الخارج ، أو كانت اعتبارية لابد لها من فاعل حقيقى يصح إسنادها إليه على جهة حدوثها حقيقة منه ، وقد قال جماعة كثيرة من العلماء إنه إذا كان الفاعل الحقيقى ظاهرا فيها ، وإلا قدِّرت الذات الإلهية فاعلا ، فيُقال فى هذه الأمثلة : سرَّنى الله برؤيتك ، وزادك الله حُسنًا في وجهه ، ويقال فى المثال الثالث : أقدمتنى نفسى .

وعلي أى حال فلا يصلح أن يكون كلام الشيخ عبد القاهر جوابا فى مسألتنا ، ذلك أن إسناد الأفعال إلي الزمن له وضع خاص ، لأن المُسند إما أن يكون ممن يعتقدون تأثير الزمن ، أو ممن لا يعتقدون ذلك ، ويوقنون أن خالق الأفعال كلها هو الله تعالى ، وعلى القرينة يتوقف تحديد أحد الاعتقادين ، ولا يمكن أن نُسَوِّى بين من يقول : وما يهلكنا إلا الدهر معتقدا ذلك ، ومن يقوله معتقدا أنه ليس للدهر أي تأثير . ونحن مضطرون تصحيحا للعقائد أن نتبين الفرق بين القائلين .

ومن عجب أن الحفيد فى حاشيته علي المختصر [1] يجيب بأن إسناد الهلاك إلي الدهر علي معنى وقوع الهلاك بلا تأثير من أحد ، لا من الله تعالى ولا من غيره بل لانتهاء مادة الحياة . قال : وأما إسناد الحوادث إليه – الزمن – في كلام العرب فلإظهار التحزن والشكوى فى صورة الإسناد إلي الدهر على سبيل الظرافة ، بدليل وقوع هذا الإسناد فى كلام أهل الإسلام مع اعترافهم بانفراد الله تعالي بالتأثير .

فكلا الجوابين غريب عجيب كأن الحفيد لم يعلم أن فريقا من الضالين الغافلين من قطائع الهنود كانوا يعتقدون اعتقادا قاطعا جازما أن الزمن هو المتصرف في كل الكائنات ، وأن هذا الاعتقاد تمكن من رؤوس ضالين آخرين من العرب ، وصريح الآية شاهد بذلك .

---

(١) (من تجريد البنانى على مختصر السعد جـ ١ . ص ١٨٣ . ملخصاً) .

ثم . ما هذه الظرافة والاسناد إلي الزمن جاء في القرآن الكريم ، وفي الحديث النبوى الشريف وفي كلام الصحابة ، والعلماء الورعين من هذه الأمة ؟

وواضح أنه في بعض الأساليب يمكن بسهولة تبين الفاعل الحقيقى ، ففى آية يوسف عليه السلام يكون النظم : تأكلون مكان تأكل السنين ، وفي قول النبى – ﷺ – يكون الإسناد فى ينبت الربيع : ينبت الله .

قلت : هل يكون الخلاص من هذا الإشكال القول بالواسطة فيقال : من الإسناد ما هو واسطة بين الحقيقة والمجاز ، فهو ليس بحقيقة لقيام القرينة على أن المتكلم لا يقول بفعل الزمن ، وليس بمجاز لأنه لا يمكن أن يعاد إلي إسناد حقيقى ؟.

لكن علماء البلاغة لم يقولوا بالواسطة بين الحقيقة والمجاز في مثل هذه الأسانيد ، ولا في غيرها من كل أسلوب أسند فيه الفعل إلي فاعل غير حقيقى . وقال بها بعضهم فى الكناية فقط .

هل نقول : إن الخلاص من هذه المشكلة ما ذهب إليه السكاكى من إدخال أسلوب المجاز العقلى فى أسلوب الاستعارة المكنية ؟.

ونتجاوز ردود الخطيب القزوينى على السكاكى في هذه المسألة ، ونقول : إن الاستعارة بالكناية يسبقها تشبيه الاسم الوارد فى أسلوبها بالاسم المحذوف فنقول – مثلا – فى : (اشتروا الضلالة) : شبهت الضلالة بسلعة ، ثم استعيرت السلعة للضلالة . ثم حذفت ورمز إليها بشئ من لوازمها وهو الاشتراء .

وهذا لا يستقيم فى كثير من الأمثلة التى ذكرناها .

فبقى الإشكال .... (والله الهادى إلى الصواب)

* * *

الفهرس

رقم الايداع : ٩٩/١٠٦٠٢

الترقيم الدولى : .I.S.B.N

977 - 19 - 9437 - 9